قصيدة

سويد بن أبي كاهل

بسطت رابعة الحبل لنا

شرح وتعليق

عبد الله الطيب

قصيدة

سويد بن أبي كاهل

بسطت رابعة الحبل لنا

شرح وتعليق

عبد الله الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

" بَسَطَتْ رَابِعَةُ الحَبْلَ لَنا "

تعريف بالقصيدة :

هذه القصيدة التي مطلعها :

بَسَطَتْ رَابِعَةُ الحَبْلَ لَنا فَوَصَلْنا الحَبْلَ منْها ما اتَّسَعْ

تُعْرَفُ بأنَّها عينيَّةُ سُوَيْد بن أبي كاهِل . معنى عينيَّة هو أنَّ قافيتها حَرْفُ الْعَيْنِ . والقصائدُ العربيةُ كثيراً ما تُعْرَفُ بحُروفِ رويِّها وهي القوافي ، فيُقالُ مثلاً قصيدةٌ بائِيَّةٌ وميميَّةٌ وعينِيَّةٌ . والقوافي نوعان : مُطْلَقٌ ومُقيَّد .

القوافي الْمُطْلَقَةُ هي التي يكون الرويُّ أيْ الحَرْفُ الأخِيرُ الذي يَجْرِي عليه الترنُّمُ فيها مُتَحَرِّكًا مثل قولِ الشاعر :

ألا هُبِّي بِصَحْنِكِ فاصْبَحِينا

لنون حَرْفُ الرَّوِيّ وهي متحرِكَةٌ بالفَتْحَةِ وبعدها ألفُ الإطلاق .

القوافي المقيَّدةُ هي التي يكون حَرْفُ الرَّوِيّ فيها ساكنًا مِثْل هذه القصيدة :

فوَصَلْنَا الْحَبْلَ منْها ما اتَّسَعْ

والْبَحْرُ الذي عليه وَزْنُ هذه القصيدةِ اسْمُه الرَّمَلُ وهْوَ أحَدُ الْبحُورِ التي بَيَّنَ أمْرَها الخليلُ بنُ أحمدَ رَحِمَهُ اللّهُ في علم العروض . ووزن البيت الأول :

فَعِلاتُنْ فعلاتن فعِلُنْ فَعِلاتُنْ فاعلاتُنْ فاعِلُنْ

وهذه القصيدة هي الأربعون في مجموعةِ المختاراتِ الشعريةِ المعروفَةِ باسم المُفضّليَّات نسبةً إلى العالِم الراويةِ الكبيرِ المُفضَّلِ الضبِّيّ الذي كان معلمًا للمهدي العباسيّ ابنِ الخليفةِ أبي جعفر المنصور . وكانِ قد جمعها له واختارها من

القصائد القديمةِ الطوالِ التي رواها هو عن أشياخِه ورواها عنه العلماءُ وأقبلوا على دَرْسِها وشَرْحِها . عاش المفضّلُ الضبي في القرن الثاني للهجرةِ ولا نَعْلَمُ تاريخَ ولادتِه ولا وفاتِه على وَجْهِ التحْديدِ ، وكان حياً إلى سنةِ ١٧٦هـ ، ومن كبارِ مَنْ أخذوا العِلْمَ عنه الكسائيُّ والفرَّاءُ وهما كبيرا شيوخِ الكوفيين في علوم النحو واللغةِ والقراءاتِ والتفسيرِ والأدب .

وَسُوَيْدُ بن أبي كاهلٍ صاحبُ القصيدةِ شاعِرٌ مُخَضْرَمٌ بفتح الراء وبكسرها . كلا الوجهين صَحِيحٌ . والمُخَضْرم هو الذي شَهِدَ الجاهليةَ وعاش فيها ثم أسلم وعاش في الإسلام . المخضرَمُ بفتح الراء أي الذي خَضْرَمَهُ الإسلامُ عن حالِ الجاهلية أي قَطَعَهُ عن حالِ الجاهلية . والمُخَضْرِم بكسر الراء أي الذي خَضْرَم أي قطع آذانَ إبله ، يَجْعَلُ ذلك علامةً تدلّ على أنه ترك الجاهلية ودخل في الإسلام .

وكان سويدُ بن أبي كاهلٍ شاعراً مُحْتَرِفًا للشعر ، يمدحُ ويهجو ويفتخِرُ بقبيلته بني يَشْكُرَ . وبنو يَشْكُرَ من كبريات قبائلِ العرب ينتسبون إلى بَكْرِ بن وائلٍ ، ومنهم الحَارثُ بن حِلِّزَةَ اليشكري صاحِبُ المعلقة التي مطلعها :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

وعاش قبل زمان سُوَيْدِ بن أبي كاهلٍ بنحوِ مائةِ سنةٍ ، أما سُوَيْدُ بن أبي كاهلٍ فقد بلغ أشُدَّهُ واستوى في الجاهلية ، وأدرك الإسلام وهو على الأرجح بين الثلاثين والأربعين ، أقْرَبُ إلى الثلاثين ، أو لعلَّهُ دونها بشيءٍ يسيرٍ . وقد عاش في الإسلام إلى ٦٥هـ أو بعدها بيسير .

وهذا بَعْدُ حِينَ نبدأُ في شَرْحِ القصيدةِ ثم نُتْبِعُ ذلك بَعْضَ التعليقِ عليها ، وقد اعتمدنا على الشَّرحِ الكبيرِ للمفضلياتِ الذي ألَّفهُ أبو مُحمَّد القاسم بن بشار الأنباري المتوفى سنة ٣٠٥هـ ، ويُعْرَف بالأنباري الكبير ، وهو والد الأنباري الصغير وهو أبو بكر بن الأنباري ، شارح المعلقات . وقد حققٌ هذا الشرْحَ الكبيرَ

المستشرق البريطاني كارلوس يعقوب لَيالْ ، وطُبِعَ في بيروت سنة ١٩٢٠م ومعه ترجمةٌ للقصائد وتعليقاتٌ عليها باللغة الانجليزية ، وقد اختصر الشَّرْحَ وأفادَ من التعليقات علماءُ كثيرون في هذا العصرِ على رأسِهم الشيخ أحمد محمد شاكر والدكتور عبدالسلام محمد هارون رحمهما الله اللذان أخرجا للناسِ ديوانَ المفضليات في طبعةٍ مصريةٍ أنيقةٍ مع شرحٍ مختصرٍ وافٍ وتعليقاتٍ حسِنة وفهارسَ مفيدة . وقد أفدنا من جميع ذلك كما ضَمَّنا عملنا نظراً واستفادة من غير ذلك من كتب الأدب والشروح ونسأل الله التوفيق .

قال سُوَيْدُ بنُ أبِي كاهِلٍ اليَشْكُرِيُّ :

١ بَسَطَتْ رَابِعَةُ الْحَبْلَ لَنَا ... فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ منها ما اتَّسَعْ
٢ حُرَّةٌ تَجْلُو شَتِيتًا واضِحًا ... كشُعَاعِ الشَّمْسِ في الْغَيْمِ سَطَعْ
٣ صَقَلَتْهُ بِقَضِيبٍ نَاضِرٍ ... مِنْ أراكٍ طَيِّبٍ حَتَّى نَصَعْ
٤ أبْيَضَ اللَّوْنِ لَذِيذاً طَعْمُهُ ... طَيِّبَ الرِّيقِ إذَا الرِّيقُ خَدَعْ
٥ تَمْنَحُ المِرآةَ وَجْهًا واضِحًا ... مِثْلَ قَرْنِ الشَّمسِ في الصَّحْوِ ارْتَفَعْ
٦ صَافِيَ اللَّوْنِ وطَرْفًا سَاجِيًا ... أكْحَلَ العَيْنَيْنِ ما فيه قَمَعْ
٧ وقُرُونًا سَابِغًا أطْرَافُهَا ... غَلَّلَتْها رِيحُ مِسْكٍ ذِي فَنَعْ
٨ هَيَّجَ الشَّوْقَ خَيالٌ زائرٌ ... مِن حَبِيبٍ خَفِرٍ فيهِ قَدَعْ
٩ شَاحِطٍ جَازَ إلى أرْحُلِنَا ... عُصَبَ الْغَابِ طُرُوقًا لم يُرَعْ
١٠ آنِسٍ كان إذَا ما اعْتَادَني ... حالَ دُونَ النَّوْمِ مِنِّي فامْتَنَعْ
١١ وكَذَاكَ الحُبُّ ما أشْجَعَهُ ... يَرْكَبُ الْهَوْلَ وَيَعْصِي مَنْ وَزَعْ
١٢ فأبِيتُ اللَّيلَ ما أرْقُدُهُ ... وبِعَيْنَيَّ إذَا نَجْمٌ طَلَعْ
١٣ وإذَا ما قُلْتُ لَيْلٌ قد مَضَى ... عَطَفَ الأوَّلُ مِنهُ فَرَجَعْ
١٤ يَسْحَبُ اللَّيْلُ نُجُومًا ظُلَّعًا ... فَتَوالِيهَا بَطِيئاتُ التَّبَعْ
١٥ ويُزَجِّيهَا عَلَى إبْطَائِها ... مُغْرَبُ اللَّوْنِ إذَا اللَّوْنُ انْقَشَعْ
١٦ فَدَعَانِي حُبُّ سَلْمَى بَعْدَ مَا ... ذَهَبَ الْجِدَّةُ مِنِّي والرَّيَعْ
١٧ خَبَّلَتْنِي ثُمَّ لمَّا تُشْفِنِي ... فَفُؤادِي كُلَّ أوْبٍ ما اجْتَمَعْ
١٨ ودَعَتْنِي بِرُقَاهَا إنَّها ... تُنْزِلُ الْأعْصَمَ مِن رَأسِ الْيَفَعْ

١٩ تُسْمِعُ الْحُدَّاثَ قَوْلاً حَسَنًا   لو أرادُوا غَيْرَهُ لم يُسْتَمَعْ

٢٠ كَمْ قَطَعْنا دُونَ سَلْمَى مَهْمَهًا   نازِحَ الْغَوْرِ إذَا الآلُ لَمَعْ

٢١ في حَرُورٍ يُنْضَجُ اللَّحْمُ بِها   يأْخُذُ السَّائِرَ فيها كالصَّقَعْ

٢٢ وتَخَطَّيْتُ إليها من عِدىً   بِزَماعِ الأمْرِ والهَمِّ الْكَنِعْ

٢٣ وفَلاةٍ واضِحٍ أقْرَابُها   بَالِياتٍ مِثْلَ مُرْفَتِّ الْقَزَعْ

٢٤ يَسْبَحُ الآلُ عَلَى أعْلاَمِها   وعَلَى الْبِيدِ إذَا الْيَوْمُ مَتَعْ

٢٥ فَرَكِبْنَاها عَلَى مَجْهُولِها   بِصِلابِ الأرْضِ فِيهِنَّ شَجَعْ

٢٦ كالْمَغَالِي عارِفَاتٍ لِلسُّرَى   مُسْنَفَاتٍ لَمْ تُوَشَّمْ بالنِّسَعْ

٢٧ فَتَرَاها عُصُفًا مُنْعَلَةً   بِنِعَالِ الْقَيْنِ يَكْفِيها الْوَقَعْ

٢٨ يَدَّرِعْنَ اللَّيْلَ يَهْوِينَ بِنَا   كَهُوِيِّ الْكُدْرِ صَبَّحْنَ الشَّرَعْ

٢٩ فَتَنَاوَلْنَ غِشاشًا مَنْهَلاً   ثُمَّ وَجَّهْنَ لأرْضٍ تُنْتَجَعْ

٣٠ مِنْ بَنِي بَكْرٍ بِها مَمْلَكَةٌ   مَنْظَرٌ فِيهِمْ وفِيهِمْ مُسْتَمَعْ

٣١ بُسُطُ الأيْدِي إذَا ما سُئِلُوا   نُفُعُ النَّائِلِ إنْ شَيءٌ نَفَعْ

٣٢ مِنْ أُناسٍ لَيْسَ مِنْ أخْلاقِهِمْ   عَاجِلُ الْفُحْشِ ولا سُوءُ الْجَزَعْ

٣٣ عُرُفٌ لِلْحَقِّ ما نَعْيَا بِهِ   عِنْدَ مُرِّ الأمْرِ ما فِينَا خَرَعْ

٣٤ وإذَا هَبَّتْ شَمالاً أطْعَمُوا   في قُدُورٍ مُشْبَعَاتٍ لم تُجَعْ

٣٥ وَجِفانٍ كالْجَوَابِي مُلِئَتْ   مِن سَمِينَاتِ الذُّرَى فيها تَرَعْ

٣٦ لا يَخَافُ الْغَدْرَ مَن جَاوَرَهُمْ   أبداً منهُمْ ولا يَخْشَى الطَّبَعْ

٣٧ ومَسَامِيحُ بما ضُنَّ بِهِ   حَاسِرُو الأنْفُسِ عن سُوءِ الطَّمَعْ

٣٨ حَسَنُو الأوْجُهِ بِيضٌ سادَةٌ   ومَرَاجِيحُ إذَا جَدَّ الْفَزَعْ

٣٩ وَزُنُ الأَحْلاَمِ إنْ هُمْ وَازَنُوا   صَادِقُو الْبَأْسِ إذَا الْبَأْسُ نَصَعْ
٤٠ ولُيُوثٌ تُتَّقَي عُرَّتُهَا   سَاكِنُو الرِّيحِ إذَا طَارَ الْقَزَعْ
٤١ فَبِهِمْ يُنْكَى عَدُوٌّ وبِهِمْ   يُرْأَبُ الشَّعْبُ إذَا الشَّعْبُ انْصَدَعْ
٤٢ عَادَةٌ كانتْ لهم مَعْلُومَةٌ   فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ لَيْسَتْ بالْبِدَعْ
٤٣ وإذَا ما حُمِّلُوا لَمْ يَظْلَعُوا   وإذَا حَمَّلْتَ ذَا الشِّفِّ ظَلَعْ
٤٤ صَالِحُو أكْفَائِهِمْ خُلاَّنُهُمْ   وسَرَاةُ الأَصْلِ والنَّاسُ شِيَعْ
٤٥ أرَّقَ الْعَيْنَ خَيَالٌ لَمْ يَدِعْ   مِن سُلَيْمَى فَفُؤادِي مُنْتَزَعْ
٤٦ حَلَّ أهْلِي حَيْثُ لا أطْلُبُها   جَانِبَ الْحِصْنِ وَحَلَّتْ بالْفَرَعْ
٤٧ لاَ أُلاَقِيها وقَلْبِي عِنْدَهَا   غَيْرَ إلْمَامٍ إذَا الطَّرْفُ هَجَعْ
٤٨ كالتُّؤامِيَّةِ إنْ بَاشَرْتَها   قَرَّتِ الْعَيْنُ وطَابَ الْمُضْطَجَعْ
٤٩ بَكَرَتْ مُزْمِعَةً نِيَّتَها   وَحَدَا الْحَادِي بِها ثُمَّ انْدَفَعْ
٥٠ وكَرِيمٌ عِنْدَها مُكْتَبَلٌ   غَلِقٌ إثْرَ الْقَطِينِ الْمُتَّبَعِ
٥١ فكأنِّي إذْ جَرَى الآلُ ضُحىً   فَوْقَ ذَيَّالٍ بِخَدَيْهِ سَفَعْ
٥٢ كُفُتٌ خَدَّاهُ عَلَى دِيبَاجَةٍ   وَعَلى الْمَتْنَيْنِ لَوْنٌ قد سَطَعْ
٥٣ يَبْسُطُ الْمَشْيَ إذَا هَيَّجْتَهُ   مِثْلَ ما يَبْسُطُ في الخَطْوِ الذَّرَعْ
٥٤ رَاعَهُ مِن طَيِّئٍ ذُو أسْهُمٍ   وضِرَاءٍ كُنَّ يُبْلِينَ الشِّرَعْ
٥٥ فَرآهُنَّ ولَمَّا يَسْتَبِنْ   وكِلاَبُ الصَّيْدِ فيهنَّ جَشَعْ
٥٦ ثُمَّ وَلَّى وجَنَابَانِ لَهُ   من غُبَارٍ أكْدَرِيٍّ واتَّدَعْ
٥٧ فَتَرَاهُنَّ على مُهْلَتِهِ   يَخْتَلِينَ الأَرْضَ والشَّاةُ يَلَعْ
٥٨ دَانِيَاتٍ ما تَلَبَّسْنَ بِهِ   واثِقَاتٍ بِدِمَاءٍ إنْ رَجَعْ

٥٩ يُرْهِبُ الشَّدَّ إذَا أرْهَقْنَهُ ... وإذَا بَرَّزَ مِنْهنَّ رَبَعْ

٦٠ سَاكِنُ الْقَفْرِ أخُو دَوِّيَّةٍ ... فإذَا ما آنَسَ الصَّوْتَ امَّصَعْ

٦١ كَتَبَ الرَّحْمنُ ، والحَمْدُ لَهُ ، ... سَعَةَ الأخْلاَقِ فينَا والضَّلَعْ

٦٢ وإبَاءً لِلدَّنِيَّات إذَا ... أُعْطِيَ الْمَكْثُورُ ضَيْمًا فكَنَعْ

٦٣ وبِناءً لِلْمَعَالِي ، إنَّما ... يَرْفَعُ اللّهُ ومَنْ شاءَ وَضَعْ

٦٤ لا يُرِيدُ الدَّهْرَ عنها حِوَلاً ... جُرَعَ الْمَوْتِ ولِلْمَوتِ جُرَعْ

٦٥ نِعَمٌ لِلّهِ فِينَا رَبُّهَا ... وصَنِيعُ اللّهِ ، واللّهُ صَنَعْ

٦٦ كَيْفَ باسْتِقْرَارِ حُرٍّ شَاحِطٍ ... بِبِلادٍ لَيسَ فيها مُتَّسَعْ

٦٧ رُبَّ مَن أنْضَجْتُ غَيْظًا قَلْبَهُ ... قد تَمَنَّى لِيَ شَراً لم يُطَعْ

٦٨ ويَرَانِي كالشَّجَا في حَلْقِهِ ... عَسِراً مَخْرَجُهُ ما يُنْتَزَعْ

٦٩ مُزْبِدٌ يَخْطِرُ ما لم يَرَنِي ... فإذَا أسْمَعْتُهُ صَوْتِي انْقَمَعْ

٧٠ قَدْ كَفانِي اللّهُ ما فِي نَفْسِهِ ... ومتَى ما يَكْفِ شَيْئًا لا يُضَعْ

٧١ بِئْسَ ما يَجْمَعُ أنْ يَغْتَابَنِي ... مَطْعَمٌ وَخْمٌ وداءٌ يُدَّرَعْ

٧٢ لَمْ يَضِرْنِي غَيْرَ أنْ يَحْسُدَنِي ... فَهْوَ يَزْقُو مِثْلَ ما يَزْقُو الضُّوَعْ

٧٣ ويُحَيِّينِي إذَا لاَقَيْتُهُ ... وإذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ

٧٤ مُسْتَسِرُّ الشَّنْءِ لَوْ يَفْقِدُنِي ... لَبَدَا مِنهُ ذُبَابٌ فَنَبَعْ

٧٥ سَاءَ ما ظَنُّوا وقد أبْلَيْتُهُمْ ... عند غاياتِ الْمَدَى كَيْفَ أقَعْ

٧٦ صاحِبُ الْمِئْرَةِ لا يَسْأمُها ... يُوقِدُ النَّارَ إذَا الشَّرُّ سَطَعْ

٧٧ أصْقَعُ النَّاسِ بِرَجْمٍ صائِبٍ ... لَيسَ بالطَّيْشِ ولا بالْمُرْتَجَعْ

٧٨ فارِغُ السَّوْطِ فما يَجْهَدُنِي ... ثَلِبٌ عَوْدٌ ولا شَخْتٌ ضَرَعْ

٧٩ كَيْفَ يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَ مَا لاحَ فِي الرَّأسِ بَيَاضٌ وصَلَعْ

٨٠ وَرِثَ البِغْضَةَ عَنْ آبائِهِ حَافِظُ الْعَقْلِ لِمَا كان اسْتَمَعْ

٨١ فَسَعَى مَسْعَاتَهُمْ فِي قَوْمِهِ ثمَّ لم يَظْفَرْ ولاَ عَجْزاً وَدَعْ

٨٢ زَرَعَ الداءَ ولم يُدْرِكْ بِهِ تِرَةً فَاتَتْ ولا وَهْيًا رَقَعْ

٨٣ مُقْعِيًا يَرْدِي صَفَاةً لم تُرَمْ في ذُرَى أعْيَطَ وَعْرِ الْمُطَّلَعْ

٨٤ مَعْقِلٌ يَأْمَنُ مَنْ كانَ بِهِ غَلَبَتْ مَنْ قَبْلَهُ أن تُقْتَلَعْ

٨٥ غَلَبَتْ عاداً ومَنْ بَعْدَهُمُ فأبَتْ بَعْدُ فَلَيْسَتْ تُتَّضَعْ

٨٦ لا يَراهَا النَّاسُ إلاَّ فَوْقَهُمْ فَهْيَ تَأْتِي كَيْفَ شَاءَتْ وتَدَعْ

٨٧ وَهْوَ يَرْمِيها ولَنْ يَبْلُغَهَا رِعَةَ الجاهِلِ يَرْضَى ما صَنَعْ

٨٨ كَمِهَتْ عَيْنَاهُ حتَّى ابْيَضَّتَا فَهُوَ يَلْحَى نفسَهُ لمَّا نَزَعْ

٨٩ إذْ رَأى أَنْ لم يَضِرْها جَهْدُهُ ورأَى خَلْقَاءَ ما فيها طَمَعْ

٩٠ تَعْضِبُ القَرْنَ إذَا نَاطَحَهَا وإذَا صابَ بها الْمِرْدَى انْجَزَعْ

٩١ وإذَا ما رَامَهَا أعْيَا بِهِ قِلَّةُ العُدَّةِ قِدْمًا والْجَدَعْ

٩٢ وعدوٍّ جاهِدٍ نَاضَلْتُهُ في تَرَاخِي الدَّهْرِ عنكمْ والْجُمَعْ

٩٣ فَتَسَاقَيْنَا بِمُرٍّ نَاقِعٍ في مَقَامٍ لَيْسَ يَثْنِيهِ الْوَرَعْ

٩٤ وارْتَمَيْنَا والأعادِي شُهَّدٌ بِنِبَالٍ ذَاتِ سُمٍّ قد نَقَعْ

٩٥ بِنِبَالٍ كُلُّها مَذْرُوبَةٌ لم يُطِقْ صَنْعَتَها إلاَّ صَنَعْ

٩٦ خَرَجَتْ عن بِغْضَةٍ بَيِّنَةٍ في شَبابِ الدَّهْرِ والدَّهْرُ جَذَعْ

٩٧ وتَحَارَضْنَا وقالُوا : إنَّما يَنْصُرُ الأقْوامُ مَنْ كانَ ضَرَعْ

٩٨ ثُمَّ وَلَّى وهْوَ لا يَحْمِي اسْتَهُ طَائِرُ الإتْرَافِ عنْهُ قد وَقَعْ

٩٩ ساجِدَ المَنْخِرِ لا يَرْفَعُهُ   خَاشِعَ الطَّرْفِ أصَمَّ المُسْتَمَعْ
١٠٠ فَرَّ مِنِّي هارِبًا شَيْطانُهُ   حَيْثُ لا يُعْطِي ولا شَيْئًا مَنَعْ
١٠١ فَرَّ مِنِّي حِينَ لا يَنْفَعُهُ   مُوقَرَ الظَّهْرِ ذَلِيلَ المُتَّضَعْ
١٠٢ ورأى مِنِّي مَقامًا صَادِقًا   ثَابِتَ المَوْطِنِ كَتَّامَ الوَجَعْ
١٠٣ ولِسَانًا صَيْرَفِيًّا صَارِمًا   كحُسَامِ السَّيْفِ ما مَسَّ قَطَعْ
١٠٤ وأتانِي صَاحِبٌ ذُو غَيِّثٍ   زَفَيَانٌ عِنْدَ إنْفَادِ القُرَعْ
١٠٥ قَالَ لَبَّيْكَ وما اسْتَصْرَخْتُهُ   حاقِراً لِلنَّاسِ قَوَّالَ القَذَعْ
١٠٦ ذُو عُبَابٍ زَبِدٍ آذِيُّهُ   خَمِطُ التَّيَّارِ يَرْمِي بِالْقَلَعْ
١٠٧ زَغْرَبِيٌّ مُسْتَعِزٌّ بَحْرُهُ   لَيسَ لِلماهِرِ فيهِ مُطَّلَعْ
١٠٨ هَلْ سُوَيْدٌ غَيْرُ لَيْثٍ خَادِرٍ   ثَئِدَتْ أرْضٌ عليهِ فَانْتَجَعْ

تمهيد للشرح :

زعم المستشرق الكبير [1] كارْلُوسْ يَعقوبْ لَيالْ في مقدمة ترجمته لهذه القصيدة أنها قصيدتان معًا من وزنٍ واحدٍ وقافيةٍ واحدةٍ ، الأُولى تَبْدأُ من البيتِ الأول إلى البيتِ الرابعِ والأربعين ، والثانيةُ تبدأُ من البيتِ الخامسِ والأربعين إلى آخرِ القصيدةِ .

وزعم أنَّ القصيدةَ الأولى متماسِكةٌ وأنَّ القصيدةَ الثانيةَ فيها اضطرابٌ وفَجواتٌ وتنتهي بوصفٍ قويٍّ للمساجلةِ التي كانت بين الشاعرِ وخَصْمِهِ .

وذكر الأستاذان د. عبدالسلام محمد هرون [2] والشيخ أحمد محمد شاكر - رحمهما اللّه - في شرحهما وحَديثهما عن هذه القصيدةِ أنَّها من أغلى الشعرِ وأنْفَسه ، قالا : "وقد فضَّلها الأصمعيُّ وقال كانت العرب تُفضِّلها - تُقدِّمها وتعدُّها من حِكَمِها ، وكانت في الجاهلية تُسمِّيها اليتيمةَ لِمَا اشتَملتْ عليه من الأمثال" .

ولقد نظرتُ في القصيدةِ وتأمَّلتُ معانِيَها وعجبتُ أوَّلَ الأمْرِ للزَّعمِ الذي زعمَهُ المستشرقُ كارلوس ليالْ ، إذْ القصيدةُ بلا ريبٍ كلٌّ واحدٌ ، متماسكةٌ جداً، ليس فيها فَجواتٌ أو اضطرابٌ كما سنبيِّن من بَعْدُ إنْ شاء اللّه تعالى .

كما قد عجبت لهذا الذي يُرْوَى عن الأصمعي - رحمه اللّه - حيث قال إنَّ العرب كانت في الجاهلية تُسمِّيها اليتيمةَ . ذلك بأنَّ القصيدةَ إسلاميَّةُ الأسلوبِ من مبدئِها إلى نهايتِها ، لم يَذْكُرْ فيها الشاعرُ شيئًا من مآثرِ الجاهلية الكبرى التي حرَّمها الإسلامُ كالخمرِ والميسر .

فإمَّا أن تَكُونَ القصيدةُ كُلُّها نُظِمَتْ في الفترةِ التي كان فيها سُوَيْدٌ مسلمًا . وإمَّا يكون قد سَمِعَ القرآنَ قبل إسلامِه وتأثَّر ببيانِه وهذا أمرٌ يُوجَدُ في بعض أشعارِ الأعشى ولبيد قبل إسْلامِهما . وقد كانت قرَيْشُ تُحرِّض الشعراء وتُشجِّعهم أن يُبَارُوا القرآنَ استجابةً للتَّحدِّي الذي تحدَّاهم به - قال اللّه سبحانه وتعالى :

(وإن كُنتُم في ريبٍ مِمَّا نزَّلنا على عبدِنا فأتوا بسُورةٍ مِّن مثلِه وادعُوا شهداءَكُم من دُونِ اللّه إن كُنتُم صادقين . فإن لم تفعلُوا ولن تفعلُوا فاتَّقوا النَّارَ الَّتي وقودُها النَّاسُ والحِجَارةُ أُعِدَّت للكافرين)

صدق الله العظيم (سورة البقرة الآيات : ٢٣ ، ٢٤) .

وقال تعالى : (قل لئن اجتَمعت الإنسُ والجِنُّ على أن يأتُوا بمِثلِ هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهُم لبعضٍ ظهيرا) . (سورة الإسراء الآية : ٨٨) .

روحُ القصيدةِ وسياقُها وكثيرٌ من ألفاظِها وأساليبِ بيانِها كلُّ ذلك يَشْهَدُ بِتَشبُّعِها بالمعاني الإسلاميةِ ، ولذلك نُرَجِّح أنَّها نُظِمَتْ في الإسلام وأن تسمِيَتَها باليتيمةِ كانت - واللّه تعالى أعلم - في الإسلام لا الجاهلية .

تتكون القصيدة من اثني عشر فصلاً .

الفصْلُ الأول من البيت (١) إلى البيت (٧) وهو الجزء الأول من المقدمة النسيبية .

بدأ سُوَيْدٌ قصيدتَهُ كعادةِ الشعراءِ القدماءِ بالنسيب ، يُهَيِّيءُ به الأذهانَ حتى تَسْتَمِعَ إليه . في هذه البداية النسيبيةِ وَصَفَ لنا محبوبَتَهُ فأعطانا صورةً جميلةً عنها .

الفصْلُ الثاني من البيت (٨) إلى البيت (١٩) فيه الجزءُ الثاني من المقدّمةِ النسيبية ، ذَكَرَ الشاعرُ فيه طَيْفَ الخيالِ وسَهَرَ العاشقِ يتذكَّرُ أحِبَّاءَهُ ويُراقبُ النجومَ ويتذكَّرُ مَحَاسِنَ محبوبتهِ وطيبَ حديثها . سمَّاها الشاعرُ هنا سَلْمَى وكان في البيت الأول سمَّاها رَابِعَةَ ، والشاعرُ قد يُسَمِّي محبوبَتَهُ بأكثرَ من اسمٍ واحدٍ . ويجُوز أنَّ رابعةَ وَصْفٌ لها ، أي هي رَابِعَةٌ علينا أي عاطِفَةٌ علينا وهذا يناسب قوله "بسطت رَابِعَةُ الْحَبْلَ لنا" ربع على كذا يَرْبَعُ : عطف .

الفصْلُ الثالث فيه وَصْفٌ للصحراء وحرّها والسيرِ فيها من البيت (٢٠) إلى (٢٩) ، وقد وَصَفَ الشاعرُ سَفَرًا على ظُهُورِ الْخَيْلِ وجعلَ ذلك تَمْهِيداً للوصول إلى ديارِ قوْمِه بني بكر ومَدْحِهم .

الفصلُ الرابع من البيت (٣٠) إلى البيت (٤٤) ، وفيه مَدْحُ قبيلتهِ الكبيرةِ بني بكر - ذكر حُسْنَ منظرِهم وحُسْنَ حديثِهم وسَعَةَ فَضْلِهم وقَديم مَجْدِهم .

الفصلُ الخامس من البيت (٤٥) إلى البيت (٥٠) عاد إلى ذِكْرِ طيفِ الخيالِ والشوقِ وذكرى المحبوبةِ ، يُهَيِّىءُ بهذا النسيبِ المختصرِ سامعيه إلى دُفْعَةٍ [١] جديدةٍ من القول الذي سيبلغ به مُرادَهُ فيما بَعْدُ . وخَتَم هذا الفصلَ القصيرَ بمعنىً يَدلُّ على شِدَّةِ الشوق الذي يحثُّ صاحبَهُ على طَلَب اللَّحَاق بأحبابه .

الفصلُ السادس من البيت (٥١) إلى (٦٠) ذكر فيه سفره ليلحق بالمحبوب ، وجعل السفرَ هذهِ المرَّةَ على ناقةٍ أو جَملٍ لِيَدلَّ على بُعْدِ المسافةِ ، ونَعَتَ راحِلَتَهُ بالسُّرْعَةِ والْقُوَّةِ فزعم أنه أحسَّ وهو عليها كأنَّه يمتطي ثَوْراً وحْشِياً تُطارِدُه كلابُ الصيْدِ ومعهن صاحِبُهنَّ الصيَّادُ الذي يَرْمِي بسهامِه القاتلاتِ . ومع ذلك نجا الثوْرُ ، وهذا يدلُّنا على أنَّ الشاعِرَ يَرْمُز بذلك إلى نَجَاتِه هو وانتصاره . ذكر الجاحِظُ في كتابِ الحيوان أنَّ الشُّعراءَ تقتل الثَّوْرَ الْوحشيَّ والحمارَ الوحشيَّ وما أشبهَهُ في قصائِدِ الرثاءِ ، وتجعلُه ينْجُو للدّلالةِ على معنى الانتصار وفي مجال المدحِ والفخْرِ .

الفصلُ السابع من البيت (٦١) إلى البيت (٦٦) افتخر الشاعر بقبيلته ، وفي استعماله ضمير المتكلم للجمع (نا) دليل على أنه يخصُّ قبيلته بني يشكر ، فقد مدح القبيلةَ الكبرى بني بكر من قَبْلُ ، ثمَّ إنَّه جعلَ نهايةَ هذا الفصلِ تَعَجُّبًا من حال نفسه ، كَيْفَ يستطيعُ القرارَ في بلادٍ ليس فيها مُتَّسع - ويعجب الْمَرْءُ من هذا التَّبرُّمِ ، لماذا جاءَ به الشاعرُ بعد فَخْره بِنَعم اللّه عليه وعلى قومِه . وإنَّما جاءَ بهذا الاستفهامِ الانكاريّ الدَّالّ على التبرُّمِ لِيَجْعَلَهُ تمهيداً لذكرِ عَدُوِّهِ المنافِقِ الْحَسُود الذي تكاد تَضيقُ الأرْضُ بِه وبالناسِ لِمَا انْطَوَتْ عليه نَفْسُهُ من الشَّرِّ والأحقادِ .

---

(١) بضم الدال وفتحها .

الفصْلُ الثامن من البيت (٦٧) إلى (٧٩) يصف فيه الشاعر عدوَّهُ الحاسدَ الحاقدَ المُنَافِقَ بمَكْرِه ومكَايِده وغَيْظِ قَلْبِه وصْفًا دقيقًا حيّاً ويَخْلُص إلى أنَّه لا يَخْشَاه ولا يُبَالي ، ويَجِدُ من نفسهِ الْقُوَّةَ على أن يَتَغَلَّبَ على أمثاله .

الفصْلُ التاسع يُمَثِّل الْجُزْءَ الثانيَ من صِفَةِ الشاعرِ لعَدُوِّه الحاسدَ من البيت (٨٠) إلى البيت (٨١) ، وشبَّه نَفْسَه ومنزِلَتَهُ بالصَّخْرَةِ العاليةِ المَلْسَاءِ ، وهذا العدوُّ لا يستطيعُ أن يُزَلْزِلَها من مكانِها ، وهي منيفةٌ فوقه غائِظَةٌ له كلَّ الْغَيْظِ بارتفاعِها وإشْرافِها عليه .

الفصْلُ العاشر من البيت (٩٢) إلى البيت (١٠٠) فيه الجزءُ الثالث من وَصْفِ عَدُوِّه وقد ضَمَّنَهُ خَبَرَ المساجَلَةِ التي دارت بينهما وكيف قَهَرَهُ بفصاحَتِه ورصانةِ شعره حتى انهزم هاربًا صاغرًا مغلوبًا .

والفصْلُ الحادي عشر من البيت (١٠١) إلى البيت (١٠٧) وصف فيه انتصاره وقدرة شيطانِ شِعْرِهِ .

والفصْلُ الثاني عشر بيتٌ واحدٌ جعلهُ قِمَّةَ تعبيره ونهايَتَهُ وجاء به على صيغة الاستفهامِ ليقرِّرَ بذلك المعنى ويُؤَكِّدهُ لا بغرض التساؤل .

شرح المفردات ومعاني الأبيات :

(١) بسطت رابعةُ الحبل لنا : مدَّت رابعة حَبْلَ المودَّةِ والوصالِ إلينا وعطفت علينا فلذلك قَبِلْنا مودَّتها ووصلنا حَبْلَها مُدَّة استمرارِها في العطف علينا ومواصلتنا .

بسطت : أي مدَّت (المضارع يَبْسُط بِضَمِّ السين) . الحبْلَ هنا معناها الوصلُ والمودَّةُ والعلاقةُ الطيِّبَةُ . ما اتَّسع أي مُدَّة اتساعِ ذلك - مدَّة استمرار ذلك في حال وصال متَّسِعٍ ومودَّة متَّسعة (ما) هنا يُقالُ لها (ما) المصدريَّةُ الظرفيَّةُ لأنها تدُلُّ على المدة والمَصْدر معًا : ما اتَّسع أي مُدَّة اتّساعه . رابعة اسم المحبوبةِ أو وَصْفٌ لها بمعنى عاطفةٍ وواصلةٍ أوْ هي المولودة الرابِعَةُ لأمها ، والوجهُ الأول هو الجيّدُ ، لأنَّ الشاعِرَ قد يستعمل أكْثرَ من اسمٍ واحدٍ للمحبوبة في قصيدتِه ، وقد يُضَمِّن الاسْم معنىً مناسبًا للسياق الذي يُوردُه فيه . هي اسمها رابِعَةُ وهي أيضًا عاطفة لأنها مدَّت حَبْل المودَّة وبسطته لنا .

(٢) حُرَّة : أي أصيلة صافيةُ اللون تَجْلُو فمًا حُلْوَ الحديث ، أسنانُها المفلَّجَةُ تبدو فيه كأنَّها لؤْلؤٌ شَتيتٌ منثورٌ مُشْرِقٌ لمَّاعٌ مِثْلُ شُعَاعِ الشمسِ الساطِعَةِ وَسْطَ الْغَيْمِ .

هذا البيْتُ في صِفَةِ الْمَرْأةِ الجميلةِ جيّدٌ شَديدُ الحيويَّةِ إذْ وَصَفَ لنا أخْلاقَها وأصْلَها بأنَّها حُرَّة ، ووصَفَ لنا ثَغْرها بأنه شتيت أي مُفلَّجُ الأسنانِ كأنها لؤْلؤٌ برَّاقٌ ، وهذا يدلُّ على تَبَسُّمِها وحُسْنِ حديثِها ، وشبَّهه بالشَّمْسِ وسْطَ الغيم لأن حَوْلَه لَوْنُ الشفتينِ واللثاتِ وهو ضاربٌ إلى السُّمْرة .

(٣) صَقَلته أي نَظَّفته بقَضيب أي بقِطْعَةٍ من غُصْنٍ ناضرٍ أي ناعمٍ من شجر الأراكِ الطيِّبِ الرائحةِ ، استاكت به حَتَّى نَصَعَ لَوْنُ أسنانِها أي وضح وصَفا . صَقَلَ مضارعها يَصْقُل بضم القاف . نَصَع مفتوحة الصاد في الماضي والمضارع .

(٤) أبيض اللَّون أي هي حرَّة تَجْلو ثَغْرًا مفلَّجًا أبْيَضَ لَوْنِ الأسنانِ لذيذًا طعْمُهُ لمن يكونُ له حَظٌّ سعيدٌ بتقبيلِه ، وحينئذٍ سيجد ريقَهُ طيِّبًا لا يتَغَيَّرُ إذا تغيَّر

ريق النساءِ الأخريات . وذلك أن الرّيقَ يتغيَّرُ بَعْدَ النوم . "إذا الريق خدع" أي إذا الريق تَغيَّر ونَقَص وجَفَّ . خَدَع يخْدَع بفتح الدال في الماضي والمضارع . والعرب تقول : أتَيْناهم بعدما خَدَعت العيْنُ وهدأتِ الرِّجْلُ أيْ في وقْتٍ مُتَأخِّرٍ من اللَّيْل بَعَدما نامَت العيْنُ وهدأت الحركةُ .

(٥) تمنح المرآةَ أي تُعْطِي مِرْآتها وَجْهًا جميلاً أي حِينَ تنظُر في المرآة تُعْطِي هي المِرْآةَ عَطِيَّةً حَسنةً هي وجْهُها الواضحُ الجميلُ الهيئةِ الصافي اللونِ البرَّاقُ المضيءُ كأنَّه جانبُ الشمسِ حينَ يرتفِعُ في الصَّحْوِ أي في سَماءٍ انقشع عنها السحابُ ، فالشمْسُ فيها مُنيرَةٌ باهِرةٌ - الصَّحْوُ بصاد مُهْمَلة أي غير منقوطة ، مَفْتوحة بَعْدَها حاءٌ مُهْملةٌ ساكِنةٌ ثمَّ واو . مَنَح بفتح النون مضارعها مُثَلَّثُ النون يَمْنَحُ يَمْنُحُ يَمْنِحُ ، كلُّها صَحِيحَةٌ وأجودها كَسْرُ النون ، ولذلك أجود الوجوه أن تقرأ : تَمْنِحُ الْمِرْآةَ إلخ ..

(٦) صافِيَ اللَّوْنِ ، صفة لقوله وجْهًا واضِحًا صافِيَ اللون - وطَرْفًا سَاجِيًا : أي تَمْنِحُ الْمِرْآةَ وجْهًا صافيًا في لونهِ وطَرْفًا كحيلاً أي عينًا كحيلة أي عليها زينَةُ الْكُحْلِ أو كأنها بطبيعتِها مَكْحُولَةٌ من حُسْنِها وجمالِ منظرِها الساحرِ - ساجيًا : من سَجا يسجُو أي هدأ وسَكَن قال تعالى : "**والضّحَى والليل إذَا سَجَا**" أيْ هدأ وسكن - والطَّرْفُ الساجي أي الهادئ الوديعُ . "مافيه قَمَعٌ" أي خالٍ من وَجَعٍ أو ورم . أي نشأت صحيحةَ العينين لم يُصِبْها رَمَدٌ يُسبب لها الْقَمَعَ في جوانب جَفْنِها وعَيْنِها - القَمَعُ وَجعٌ وبُثُور وأورامٌ تُصيبُ جانب العين .

كَلِمَةُ الطَّرْفِ تدلُّ على الْبَصَرِ والْعَيْنِ ولكنها لا تُثَنَّى ولا تُجْمَعُ وطَرفَتِ العيْنُ تَطرِفِ بكسرِ الراء في المضارع أي نظَرَت ، وطُرِفَتْ عَيْنُه بالبناء للمَجْهُول أي أصابها شَيْءٌ . قَمِعَتْ عينُه بكسر الميم تَقْمَعُ بفتح الميم قَمَعًا بفتح القاف والميم أي أصابها داءُ القَمَعِ الذي تَقدَّم شرحه .

(٧) وتَمْنِحُ المرآةَ أيضًا مَنْظَر شَعْرِها الجميلِ . وقُرونًا أي خُصَلاً من الشعر - قُرونًا مفعول به ، لقوله تَمْنِحِ الذي تقدَّم . سَابِغًا أطرافُها أي خُصَلاً من الشعر

أطرافها غَزِيرَةٌ كاسَيَةٌ . وقد أدخلت فيها الْمِسْكَ الكثيرَ والطِّيبَ الزَّاكِيَ الرائحةِ . غلَّلْتُها أي أدخلت فيها . غَلَّ في المكان يَغُلُّ أي دخل وغَلَلْتُه أنا في المكان أي أدخلته . غلَّلْتُها رِيحَ مِسْكٍ أي أدخلت فيها ريح مسك : ذي فَنَعٍ : أي ذي كَثْرةٍ . الفَنَعُ بفتح الفاء والنون أي الكثرة . فَنِعَ فلان يَفْنَعُ بكسر النون في الماضي وفتح النون في المضارع أي كَثُرَ مالُه وفنِعَ مالُ فلانٍ أي كَثُر . قال الشاعر أبو مِحْجَنٍ الثَّقَفِيُّ :

وقد أجودُ وما مالِي بِذِي فَنَعٍ   وأكْتُمُ السِّرَّ فيه ضرْبَةُ الْعنُقِ

وفَنَعُ المسكِ كَثْرتهُ وانتشارُ رائحته . ريحَ مِسْكٍ – ريح منصوبة مفعول به لغَلَّلَتْها وأنشدها بعض الرُّواةِ برفع ريح على معنى تَغَلَّلَتها ريحُ مَسْك والرواية الجيِّدة هي النصبُ وفاعل غلَّلتها المحبوبةُ التي وصفها الشاعر .

تعليق:

هذه الأبيات التي تقدَّم شرحُها من (١) إلى (٨) هي الجزء الأول من النسيبِ أي القسم الخاصُّ بذكرى المحبوبةِ ووصفها ، والشاعرُ العربي يُضَمِّن النسيبَ إشاراتٍ إلى أغراضِه التي يتناولُها في القصيدة . المحبوبَةُ هنا عاطفةٌ والشاعر على صلة حسنةٍ معها وسيدوم على ذلك ما دامت هي على ذلك .

وسنُبيِّن فيما بَعْدُ إن شاء اللّه أنَّ هذه المحبوبةَ كأنَّها رَمْزٌ لقبيلةِ الشاعر ولنفسه ولانتصاره على خصومه .

تهتمُّ العرب في نسيبها بَوصْفِ الثغر لأنه يدلُّ على الابتسامِ وحسن الحديثِ ، وبوَصْفِ الطرف لأنه يُعبِّر عن العواطِف ويدلُّ على الشخصية .

لم تكن نساءُ العربِ حُمْرَ الألوانِ أو شُقْرَ الألوانِ . ولم تَصِفْ شعراءُ العرب في جاهليتها وفي أيام الإسلام الأولى نساءها بتوريد الخدودِ (*) وإذا قالوا امرأةٌ بيضاءُ

(*) الأبيات التي فيها (سقَتْ وردًا) المنسوبة إلى يزيد بن معاوية من الشعر المنسوب إليه خطأ .

عَنَوْا بذلك أنها جميلةٌ . وربما وصفوا اللَّوْنَ نفسه فذكروا أن فيه صُفْرةً كبيض النعام أو كالفِضَّة التي مازجها ذهب أو الرَّوضة التي شَعَّت عليها شمس الأصيلِ أو الأُتْرُجَّةِ أي البرتقالةِ الفوَّاحة الطيبةِ الرائحة .

الفصل الثاني وهو الجزء الثاني من النسيب :

(٨) هيَّجَ الشوْقَ خيالٌ - أي زارني طَيْفُ الخيالِ من المحبوبةِ وهيَّجَ شوقي إلى لقائها . هذا الخيالُ زارني من عند محبوبتي ذاتِ الحياء والتحشُّم والوَقَار . امرأةٌ خَفِرَةٌ بفتح الخاء وكسر الفاء أي تستحي وتتحشم . الخَفَر بفتح الخاء والفاء أي الحياء ،حبيب خَفِرٌ بكسر الفاء أي حبيب حَيِيٌّ فيه قَدَعٌ : أي فيه وقار وانقباض عن الظهور والجراءة . قَدَعْتُ فُلانًا عني أقْدَعُهُ وأقدَعْتُ فلانًا أُقْدِعُهُ أي رددته عني وفلان يَقْدَعُ نفسه عن الدنايا أي يتعفَّفُ ، وفيه قَدَع أي فيه عِفَّةٌ ووقارٌ ويقدعُ نفسه عن الأمور التي يَهابُها . القَدَعُ بفتح القاف والدال أي التعفُّف والتهيُّب والانقباضُ بسبب الحياءِ والعفَّةِ .

هيَّجَ شوقِي خيالٌ زارني من حبيبٍ كثيرِ الحياءِ والهيبةِ للمخاطرِ ، لوقاره وعفَّتِه .

من عادةِ شُعراءِ العربِ إذا وصفت طيْف الْخيال وَصَفَتْهُ بأنَّهُ يركَبُ الأهْوال ويتخطَّاها مع أن المحبوبَ نَفْسَهُ شديدُ الْهيبةِ والحياء .

(٩) شاحط : بعيد : شَحَطت (بفتح الحاء وكسرها) الدار أي بَعُدت تَشْحَط أي هذا الطيفُ الذي زارَ في المنام قد جَاء من حبيبٍ بعيدٍ جداً عني . وقد جاز هذا الخيالُ مسافةَ الصحراءِ حتى زارنا في أرْحُلِنا ونحن مسافرون وبيننا وبين دياره غابات كثيرةٌ فيها الشوك والْهوام والسباع والأهوالُ ، مع ذلك هذا الطيْف قد جاز - أي قَطَعَ - عُصَبَ الغاباتِ أي مَجْمُوعاتِ الغاباتِ التي بيننا وبينه - طُروقًا أي ليلاً ولم يخفْ - لم يُرَعْ أي لم يَرُعْهُ شَيْءٌ أي لم يُخِفْهُ شَيْءٌ . تقول رَاعَهُ الأمر يَرُوعه أي أخافه يُخيفه .

(١٠) أنسٍ - صفة للحبيب الخفِر ولطَيفِه الزائِر ، أي مُؤانِس ومُلاطِف . وهذا الطَّيْفُ كانَ كلَّما أعتادَني أي كلَّما عاوَدني بزيارتِه أرَّقني وحَال بيْنِي وبيْن النَّوْم فَامْتَنع النَّوْمُ عني .

تقول عادَه كذا واعْتَادَهُ وعَاوَدَهُ ، كُلٌّ مَعْناها وَاحِدٌ - يُقالُ تَعْتادني الْحمَّى كلَّ ثَلاثةِ أيام وتُعُودني وتُعاوِدُني . قال الشاعِرُ ذو الرُّمَّة يَذكر محبوبته :

تَعْتَادُني زَفَرات من تَـذَكُّرِها تَـكادُ تَنْـفَضُّ منهنَّ الحيازيم

أي زفرات شديدة تُؤَثِّر في الصدر هزتها حتَّى تُوشك الضُّلوع أن تنكسر وتنفصل .

(١١) وكذَاكَ الحُبُّ ما أَشْجَعَهُ يَرْكَبُ الْهَوْلَ وَيَعْصِي مَنْ وَزَعْ

هذا البيت من أبيات الحكمة الرائعة .

لما ذكر الشاعرُ طيفَ الخيالِ ونسبه إلى محبوبته الحبيبةِ الهيوبِ تَعجَّبَ منه كيف استطاع أن يتجاوزَ الأهوالَ والغاباتِ ويَصِلَ إليه ؟ كيف جسر على تَخَطِّي هذه الأهوالِ مع أن صاحِبَتَهُ امرأةٌ لا تَقْدِرُ على ملاقاة هذه الأهوال ؟

والحقُّ أنَّ الحبيبةَ التي زاره طَيْفُها لم تَزُرْهُ هي نَفْسُها ، ولا أرسلت طيْفَها إليه . ولكنَّ الذي صوَّر له صَورتَها وجَعل طيْفَها يَزُوره في المنام هو تَفْكِيرُه هو نَفْسُه فيها ، وعَقْلُه الباطِنُ هو الذي صوَّرها له . وقد بيَّن هذا المعنى لنا من بَعْدُ الشاعر أبو تمَّامٍ حيث قال :

زارَ الخيالُ لها بل أزارَكَهُ فِكْرٌ إذا نَامَ فِكْرُ الخَلْقِ لم ينَمِ

أي زارك خيالُها لا بل جعله يزُورك تفكيرُك فيها ، وذلك أنك بتفكيرك فيها الدائم لا ينام عقلُك عنها حتَّى حين ينامُ الناسُ وتَنْصَرِفُ عنها وعن غيرها أفكارُهم .

إذَنْ فعَقْلُ الشاعرِ وفِكْرُه هو الّذِي اقتحم اللّيْل ونَسِيَ أهوالَ الصحراءِ وعُصبِ الغابِ وتجاوزَ جَميعَ ذلك إلى دارِ الحبيب الحَيِيّ الهَيُوب الشاحطِ الدار أي البعيد الدار ، وإنما فعل فِكْرُهُ ذَلِكَ بِجراءةِ الحبِّ وشجاعته :

وكذاكَ الحُبُّ ما أشْجَعَهُ يَرْكَبُ الهَوْلَ وَيَعْصِي مَنْ وزَعْ

ويعصي من نهاه . الوازع هو الذي يُنَظِّمُ أَمْرَ الناسِ ويَمْنَعُهم من الفَوْضَى . ولا بدَّ للنَّاس من وَزَعةٍ ، أي الناس يحتاجون إلى وَزَعةٍ جمع وازِع ، مثل كَتَبة جمع كاتب وعَمَلة جمع عامِل وقَرَأة جمع قارِىء . وَزَعَ يَزَعُ فهو وَازِع وهم وَزَعَةٌ .

في الحديث : من يَزُع السلطانُ أكثر مِمَّن يَزَعُ القرآن - أي من يزعه أي يكفّه خوفُ السلطان من ارتكاب الخطأ أكثر ممن يَكفُّه القرآن بمواعظه وتذكيره .

الفعل وَزَع مثل وَضَع ووَزَن مضارعه بفتح الزاي (يزع مثل يَضَعُ وبكسرها يَزِعُ مثل يَزِنُ) .

كما تجرَّأ هذا الطيف فتخطَّى الأهوال ، كذلك الحبُّ يركبُ الأهوال ويتحداها ويَعْصِي من يريد نَهْيَهُ وكَفَّه عن اندفاعِه في سبيلِ الحبِّ .

(١٢) ثم بعد هذه الحكمةِ تحدَّث الشاعرُ عن تأْريقِ الحبِّ له حتى سَهِرَ وجعل يراقب النجومَ وقال :

فأبِيتُ اللَّيلَ ما أرْقُدُهُ وبِعَيْنَيَّ إذا نَجْمٌ طَلَعْ

أي أقضِي الليل ساهرًا فأرى كلَّ نجم أوانَ طلوعِه .

(١٣) وإذَا ما قُلْتُ لَيْلٌ قد مَضَى عَطَفَ الأوَّلُ مِنهُ فَرَجَعْ

والحقيقة أن أول الليلِ لا يعطفُ مرَّةً أخرى وينثني راجعًا بعد ذهابه ، ولكنَّ من يسْهَرُ الليْل ويأْرَقُ ويُفكِّر تَمْضِي الساعاتُ عليه بطيئةً فيظنُّ أن الليل قد كرَّ راجعًا وقد زِيدَ طُولُه .

قال الفرزدق :

يَقُولُونَ طالَ اللّيلُ واللّيْلُ لم يَطُلْ ولكنَّ من يشكُو من الحُبِّ يَسْهَرُ

وقال النابغة الذبياني ، وقد تأثر شاعِرُنا سويد بقوله إذْ كان مشهورًا :

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ[1] نَاصِبِ وليلٍ أُقاسيه بطيءِ الْكواكبِ
تَطاوَلَ حتَّى قلْتُ ليس بمُنْقضٍ وليْسَ الذي يَرْعَى النجوَم بآئبِ

توهم أنَّ النجوم بهائمُ ترعى وهي بطيئةٌ هائمةٌ وقد ذهب رَاعِيها ولن يعود - فهذا تمثيل مثْله لبُطْئِها ولمُراعاتِه لها .

(١٤) هذا اللَيْلُ يَسْحبُ نجُومه ، يجرُها جراً ، وهي من بَطئِها كأنها حيوانات ظالِعةَ أصابها وَجَعٌ أو جُرْحٌ في الرِّجل فهي تَظْلَعُ من أجل ذلك . والنجوم تتبع بَعْضُها بَعْضًا ، والنجوم المتأخرة بَطِيئةٌ جداً في اتباعها للنجوم المتقدمة . ظُلَّع بضم الظاء وتشديد اللام المفتوحة جمع ظَالِع ، والجمعُ على صيغة فُعَّل وفُعَّال مُطَّرد في كل كلمة على وزن فاعِل أو فاعلة ، ولكنَّ صيغة فُعَّال مثل كُتَّاب وعُمَّال وقُرَّاء أكثرُ ما تستعمل للمذكرِ ، وصيغة فُعَّل تُسْتعمل للمذكَّرِ والْمُؤَنَّثِ ، وقد تستعمل صِيغةُ فُعَّال أحيانًا للمؤنث ؛ قال القُطَامي يتحدَّث عن النساء :

أبصارُهنَّ إلى الشُّبَّانِ مائلَةٌ وقد أراهُنَّ عَنِّي غَيْرَ صُدَّادِ

أي غير ذوات صُدود . تَواليها جمع تالٍ وتالية أي النجوم التي تتلو ما أمامَها تتبعها بطيئاتِ التَّبع أي بطيئاتِ الاتّباع ، تقول تَبِعْتُ فلانًا أتْبَعُه تَبَعًا واتَّبَعْتُه أتَّبِعه اتِّبَاعًا وأتْبَعْتُه أُتْبِعه إتباعًا - كلها متقاربات في المعنى .

(١٥) ويُـزَجِّيهـا عَلَـى إبْطَائِـها مُغْرَبُ اللَّوْنِ إذَا اللَّوْنُ انْقَشَعْ

أي هذه النجوم بُطيئاتٌ يتْبَعُ بَعْضُها بعضًا .

ويُزَجِّيها أي يسوقها . تقول أزجيت راحلتي وزجَّيْتُها أي سقتها برفْق مضارِعُ أزْجَي يُزْجِي ومُضارع زَجَّى يُزَجِّي . وبضاعةٌ مُزْجَاةٌ أي قليلة .

---

(١) بنصب التاء على توهم الاستمرار في لغة من ينتظر .

يقول الشاعرُ هذه النجوم البطيئاتُ وراءَها سائقٌ يسوقُها برِفْقٍ وبلا إسْراعٍ هذا السائقُ مُغْرَب اللّوْنِ أي فيه بياضٌ وحُمْرَة ، يَعْنِي الْفَجْر ، حِينَ لَوْنُ الليلِ الأسودِ ينقشع أي يأخُذُ في الزَّوال ثمَّ يزول . انقشع الليل أي مضى وذهب .

أصْلُ كلمة الْمُغْرَب في وصفِ الخيلِ للحصان الذي يكون في وَجْهِه بياضٌ وعند ملتقى أطْرافه بجسمِه حُمْرة - أي هو غريب في لونِه ، والشاعر عنى بالْمُغْرَبِ اللَّوْنِ الصُّبح ، لأن الفجرَ الكاذبَ يلوح بحُمْرَتِه عمُودِيًا كذنب منتفش ، ثم يجيء الفجْرُ الصادق ، وهو بياضٌ أُفُقِيٌّ ثُمَّ يجيءُ الشَّفَقُ الأحمر وتنكشف الدنيا وينقشع لونُ اللّيل بسواده .

(١٦) راقب الشاعر النجومَ وتذكَّر أشواقَه وحبَّه فقال :

فَدَعَانِي حُبُّ سَلْمَى بَعْدَ مَا ذَهَبَ [٣] الْجِدَّةُ مِنِّي والرَّيَع

سمَّى محبوبته "سَلْمَى" بعد أن كان قد سمَّاها رابعة ، الجِدَّة بكسر الجيم وتشديد الدَّال المفتوحة أي الشباب الأول ، والرَّيع بفتح الياء بعد الراء المشدَّدة المفتوحة أي ريْعان الشباب وشدته وعُنْفُوانه .

بيَّن لنا الشاعرُ هنا أنه قد تقدَّمت به السِّنُّ وأنَّ حُبَّه لرابعة وهي سلمى كان في زمانِ الشباب ، وحينئذ بسطت مودَّتها ووصلها له . وهو يتذكَّر جميعَ ذلك ولا ينساه ويشتاق إلى زمانه .

(١٧) ولقد أحبَّها حُبّاً شديداً كأنه جُنون وكأنَّها خبَّلته أي أصابت عقْلَهُ بجنون من حُبِّها .

يَجُوز أن تقول خَبَلَتْنِي بدون تشديد وخبَّلَتني بالتشديد ، رُوِيَ البيت بالوجهين . تقول خَبَلَهُ الحُبُّ يخْبُلُه بضم الباء في المضارع خَبْلاً وخبَّله الحبُّ يُخَبِّله تَخْبيلاً .

ورُوِيَ البيت أيضًا هكذا : خَبَلَتْنِي ثُمَّ لمَّا تُشْفِنِي

بالحاء المهملة أي صادتني بحبالها أي بشرك حبّها . تقول حَبلْتُ الصَّيْدَ أحبُله بضم الباءِ في المضارع .

شَفَاهُ يَشْفِيه وأشْفاه يُشْفِيه ، ثلاثي ورباعي .

يقول الشاعر هذه المحبوبة شغفتني حباً ، جنَّنتني بحُبّها أو صادتني بحُبِّها ولم تُداوني من مرض الحبِّ إلى الآن فَفُؤادي ذَاهِبٌ وراءَها في كلِّ جهة ، مُتفرّق بالشوق إليها في كلِّ أوْبٍ أي في كلِّ وَجْهٍ من الدنيا وفي كلِّ مكان - "كلَّ أوبٍ" أي في كلّ مكان . كلَّ منصوبة على الظرفية .

(١٨) ثمَّ ذكر الشاعرُ أنَّ من أسبابِ حبّه لها، ومن الوسائل والحبائل التي اصطادته بها ، حَديثَها الساحرَ من فَمِها الباسمِ الجميلِ الذي وصفه من قَبْلُ فقال :

حُرَّةٌ تَجْلُو شَتِيتًا واضِحًا كشُعَاعِ الشَّمْسِ في الْغَيْمِ سَطَعْ

ثمَّ قال :

أبْيَضَ اللَّوْنِ لَذِيذاً طَعْمُهُ طَيِّبَ الرِّيقِ إذَا الرِّيقُ خَدَعْ

والعرب تزعم أن الْوَعِلَ أي الثور الوحشيَّ الأعصم الذي في يديه بياضٌ يكون في أعالِي الجبالِ ، وهو سريعٌ شديدُ الحذرِ عَسِيرُ الصَّيْدِ ، فالصيادون يَحْتالُون لصيده ، وكذلك أُنثى الْوَعِلِ ، ويُقال لها الأُرْوِيَّة بضم الهمزة وسكون الراء بعدها واو مكسورة بعدها ياء مفتوحة مشددة وتاء التأنيث الجمع أرَاوَى آخرها ألف لينة . قالوا : والأُرْوِيَّة والْوَعِلُ يطربان للصوت الجميلِ ، فإذا أرادَ الصيادون صَيْدَ الْوَعِل أو أُنثاه الأروية نصبوا الأشراكَ وتَغَنَّوا بأصواتٍ جميلةٍ فيجيء الوعِلُ وتجيء الأُروية وتستمع وتَطْرَب فيقعان في الشرك .

الرُّقية وجَمْعُها الرُّقيَ هي ما يتداوى به الإنسانُ من السُّمِّ والسِّحر . أحياناً تكون شيئًا يُشْرب أو نحو ذلك وأحيانًا تكون دُعاءً وكلمات كقراءة الفاتحة مثلاً للسعة العقرب .

زعم الشاعر أنه كالوعل البرّي شراسةً وقُوّةً وامتناعًا ، ولكن سلمى دعته بحديثها العذبِ المؤثّر كما تُؤَثّر الرُّقْية في الملسوع والملدوغ والمسحور .
حديثها العذب المطرب المؤثّر الذي يمكن أن يُصطادَ الوَعِلُ به فينزلُ لاستماعِه من أعلى الجبل .
اليَفَع أي المكان المرتفع .
يقولُ الشاعر إنَّها أثَّرت فيَّ بحديثها الجميل المطرب الذي ينزِلُ له من يكون صَعْبَ المنال مثلي ومثل الْوَعِلِ الجبلي فيقعُ في الشرك .

(١٩) استمر الشاعر في وصف حَديثِ سلمى العذبِ فقال إنها تُسْمِعُ المتحدثين إليها حديثَها الحسنَ ولو طلبوا غيره من غيرِها من الناسِ لم يجدوه . هي وحدها تملك هذا القوْلَ الرائع المُؤثر الذي تصطاد به القلوب .
الحُدَّاث أي الذين يحدثونها . تقول هو رَجُلٌ حَدُثٌ بضم الدال وحَدِثٌ بكسر الدال أي كثير الحديث وحِدْثٌ بكسر الحاء وسكون الدال وهم حُدَّاث .

تعليق:

إلى هنا انتهى الجزءُ الثاني من الغزلِ ، ومن عادةِ الشعراء إذا ذكروا المحبوبةَ وأشعروا أنَّ أسباب حبِّهم ما زالت باقية زعموا أنهم سيلحقون بالمحبوبة ، فيجعلون ذلك وسيلةً إلى وَصْفِ الطريقِ والراحلةِ والصحراءِ وطبيعة البيئة التي يعيشون فيها .

ثمَّ يكشفون المعانيَ الرمزيةَ التي يُشيرون إليها بنسيبهم . الشاعر هنا سيقطع الصحراء على ظهر الخيل ، والعرب لا تَقْطعُ المسافات الصحراوية الشاسعة بالخيل ولكن بالإبل . ولكنَّ الغرضَ الذي يُخْبِرُنا الشاعر بأنه يريد الوصول إليه هو دِيار قبيلته العظيمةِ بني بكر . وإذن ركوبُ الخيل يَرْمزُ به إلى الفروسية والقتال . وقد وضع قبيلتَه بني بكر موضع المحبوبةِ التي يشتاق الشاعر إليها ويطلب اللحاق بها .

وكما وصف الشاعر سلمى أو رابعة بأنها بسطت مودَّتها له ، وبأنها جميلة المنظر حُلْوة الحديث ، كذلك وصف قومه بني بكر بالسماحة وبَسْطِ اليد كرمًا كما وصفهم بحسن الخلق والمنظر وجودة الحديث : "منظرٌ فيهم وفيهم مُسْتمعٌ" (٤) .

والآن ننتقل إلى شرح الفصل الثالث وهو وصف السير والصحراء والخيل التي ركبها ، من البيت (٢٠) إلى (٢٩) .

(٢٠) المَهْمَهُ الصحراءُ ، الجمع مهامِهُ ممنوع من الصرف ، لصيغة منتهى الجموع . نازحٌ بعيد . غَوْرُ الصحراءِ بُعْدُها واتّساعها . نَازِحُ الْغَوْرِ : بعيد المسافة الآل هو سرابُ أولِ النهار .

يقول الشاعر : كم وكم قطعنا من أجلِ الوصولِ إلى سلمى صحراءَ وصحراءَ كانت بيننا وبَيْنها ، صحراء بعيدةَ المدى ، سافرنا فيها وسرابُها يلمع وحرُّها شديد .

(٢١) في ريح حارة - الْحَرور بفَتْح الحاء هي ريح النهارِ الحارَّة وتقابلها السَّموم بفتح السين وهي ريح الليل الحارة - سافرنا نهارًا والريح حارة حرًّا تلتهب له الدنيا ويمكن إنضاج اللَّحْمِ على رمضائه ، والسائرُ فيها تُصيبه من الشمسِ ضربةٌ شديدة كأنها صاعقة - الصَّقَع حرٌّ في الرأس . وصَقعْتُ الشيء ضَربته أصْقَعه بفتح القاف صَقْعًا والصَّقَع بمعنى وجع الرأس بفتحتين على الصَّاد فتحة وعلى القاف فتحة .

وتقول صَعِقَ فلانٌ ، بالمبنيّ للمعلوم ، يَصْعَق وصُعِقَ يُصْعَقُ بالمبنيّ للمجهول أي أصابته صاعِقَة ويقال أيضًا صاقِعة والفعل صَقَعَ يَصْقَع .

نَضِجَ الشيء بكسر الضاد ينْضَجُ بفتحها في المضارع نُضْجًا بضم النون وفتحها ولا تقل "نضوجًا" فهي غير صحيحة - والشيء ناضِجٌ ونضِجٌ وأنضجته أنا إنضاجًا .

(٢٢) وكم تخطَّيت من أجل اللّحاق بسلمى ولشوقي إليها ، كم تخطَّيت من ديارٍ فيها أعدائي ، تجاوزت هؤلاء الأعداء بشجاعتي وقوة عزمي وملازمتي للجد والعزيمة .

عُدىً بكسر العين وبضمِّها أي أعداء . بزِماع الأمر : بالجد في الأمر . الزَماع بفتحْ الزاي مثل السَّحاب في الوزن وبكسر الزاي مثل الكتاب في الوزن ، هو الجدُّ في الأمور وقوةُ العزيمة . كَنَع الأمر يكْنُع كنُوعًا أي قرب .: أعوذ باللّه من الخُنوع والكُنوع والقُنوع - الخنوع طأطأةُ الرأسِ مذلةً وخضوعًا . الكُنوع الدّنو من الناس لتملقهم وللتذلل لهم ، والقُنوع سؤال الناس . وكَنِع بكسر النون يكْنَعُ أي لزم الأمر . "الأمر الكنِعْ" بكسر النون أي الملازم أي سافرت بحزم وجدّ وعزيمة قوية ملازمة .

(٢٣) وكم من فَلاةٍ أي صحراءَ واضحةِ الجوانب أي لامعةِ الجوانب بضوء الشمس تبدو نواحيها وسط السَّراب والغَبَرة . مثل قِطَعِ السَّحابِ المُتَفَرّقة [٥] .

وَفلاةٍ : صحراء جَمْعُها فَلَوات . أقراب جمع قُرْب بضم القاف أي جَنْب وقُرْبُ الحيوان هو جَنْبه الذي فيه كُلْيتُه . واَضحِ أقْرابُها أي واضحةٍ أقرابها ، جرّ واضحة لأنها نَعْت سَبَبي لفلاةٍ وأقرابُها فاعِلٌ وهو جَمْعُ تكسيرٍ ويجوز تذكير الفعل وتذكيرُ النَّعت السببي مع جمع التكسير - كأنك قلت وفلاة وضَحَ أقرابها أي وضَحتْ أقرابُها فهي واضحةٌ أي بيِّنة ولامعةٌ في ضوء الشمس .

مُرْفَتّ ، أصل هذه الكلمة من الرُّفات أي العظام البالية المتكسِّرة ، والقَزَع جمع قَزَعة وهي السَّحابة المتفرقة وكذلك قِطْعةُ الشَّعْرِ التي تَبْقَى في رأْسِ الصَّبِيّ . والعرب تقول لِقطَعِ السحاب المتفرّقة قزعٌ وقنازِع ، وكذلك لبقايا الشَّعْر المتفرّق - ويقولون ما بقي في رَأْس فلان إلاّ قنازع أي قطع متفرقاتٌ من بقايا الشَّعْر وارْفتَّ الشيءُ أي تفرّق وتكسَّر . "مُرْفَتِّ القَزَعْ" أي قطع السحاب المتفرّقة .

(٢٤) هذه الفَلاةُ يسبح السرابُ على تِلالِها ومُرْتَفَعَاتِها وعلى جميع أرجائها وبيدائها حين يرتفع النهار . السَّراب الذي يرتفع قُرْبَ الزوال عند أول ارتفاع النهار هو الآل ، أعلام جمع عَلَم وهو التَّل والجبل والمكان المرتفع الظاهر . البيد جمع بيداءَ أي مكان قفر ، والبيد القفار الخالية ، ومَتَع اليومُ يَمْتَع "بوزن منع يمنع" ومتع النهار أي ارتفعت شمسه .

(٢٥) فركبنا هذه الفلاةَ الواضحة الأقراب التي تبدو نواحيها كالسَّحاب المتفرّق المتشتت ، كأنه ثياب قِطَعُها بالية متفرّقة ، ركبناها بالرغم من أنَّا لا ندري مجاهلها وأهوالها بخيلٍ صلابِ الأرض - أي صليبات الحوافر ، فيها خِفَّة وإسراع ، شَجَع بالتحريك أي خفَّة وإسراع . الأرض هنا عنى بها الحوافر وبقوله صلاب الأرض دلَّ على أنها صلاب القوائم ولكنه هنا عنى الخيل . وتقول العرب صَلُب الشيء فهو صُلْب بضم الصاد وصليب وصُلُبٌ بضمتين وشدَّة والجمع صِلاب .

(٢٦) وهذه الخيل كالمغالي أي كالسهام الواحد مِغْلى بكسر فسكون ، وهي عارفات بالسّرى وهو سير الليل ومسنِفات بكسر النون أي متقدمات مندفعات أو مسنَفات بفتح النون أي مقدّمات مدفوعات إلى الأمام ، لم تجعل عليها سيور تترك على جلودها وشمًا أي أثرًا كأنه الوشمة أي النقش على الجلد ، المغلى أي السهم اشتقاقها عن غلا بالسهم يغلو به أي رمى رميًا شديدًا والمسافة التي يقطعها السهم في أشد الرمي اسمها غَلْوة بفتح الغين والجمع غِلاء والعرب تقول جري المُذكيات غلاء أي جري الخيل الجياد لا يحكم عليه مرة واحدة ولكن بجريات متعددة .

والسِناف بكسر السين خيط يُشدُّ به حزام الإبل ، والإسناف في الحرب هو التقدم ، وأسنفت الناقة وأسنفت الفرس أي تقدمت ورواية البيت بكسر النون من مسنِفات وبفتحها، وقال الشاعر : لم توشم بالنسع، لكيلا يتبادر

إلى ذهنك من قوله مسنفات أنها إبل فنفى أن تكون مشدودة الحزام بسير أو نسعة تؤثر على جلدها . والنِسعة بكسر النون السير وجمعها نِسَع بكسر ثم فتح .

(٢٧) فترى هذه الخيل عُصُفًا (بضمتين) أي سريعات عاصفات مثل الريح ، ولحوافرها الشديدات نعال حديد مما صنعه القين ، والقَيْن هو الصانع ، وأكثر ما تطلق على الحدّاد والجمع قيون . والقينة الصانعة ، وأكثر ما تطلق على المغنية ، هذه النعال الحديدية تقيها الأذيْ من ضربها للحجارة ضربًا شديدًا وهي على أرض فيها صلابة وحجارة . الوَقَع بفتحتين أي الضرر الذي يلحق بالحافر . تقول العرب وقِعَ الحافر يَوْقَعُ وَقَعًا بوزن وَجِعَ يَوْجَعُ وَجَعًا والمعنى متقارب (٦) .

(٢٨) هذه الخيل قد اندفعت في الليل وكستها ظلمته وسواده فكأنه درع عليها وهذه الخيل يَهْوِين بنا هُوِيّاً أي يندفعن بنا مسرعات كأنها القطا الكُدر الألوان التي جاءت مسرعة إلى ورود الماء وجعلت تهوى إلى الشرع أي إلى المكان الذي ترد فيه الماء - العرب تقول لمورد الماء شريعة وشَرَع بالتحريك ومَشْرَعة . والقطا ترد الماء عند الفجر وأول الصباح ، والقطا نوعان نوع فيه سمرة وهو الكُدْرُ والواحدة كُدْرِيّة وآخر فيه سواد وهو الجُون والواحدة جُونِيّة .

(٢٩) والقطا حين ترد تشرب بخفة ومن دون إسراف وإذا شرب الشارب من الماء قليلاً قليلاً قيل شرب غِشاشًا . وقال الشاعر :

لا أذوقُ النَّومَ إلاَّ غِرارًا   مثلَ حسوِ الطَّيرِ ماءَ الثِّمادِ

أي أنام قليلاً قليلاً مثل حسو الطير منْ ماء الثِّماد جمع ثَمْد وهو الماء القليل على وجه الأرض والكلمة معروفة في عاميتنا نقول "تمد" .

قال سويد :

فَتَنَـاوَلْـنَ غِـشاشًا مَنْهَلاً ثُـمَّ وَجَّهْـنَ لأرْضٍ تُنْتَجَعْ

أي تناولن شرابًا قليلاً قليلاً ثم توجهن إلى أرض يردن انتجاعها أي القصد إليها والإقامة بها . المنهل مكان الشراب أو الشراب نفسه . نَهِلَ يَنْهَلُ أي شرب الشربة الأولى . الشراب الأول نَهَلٌ والثاني عَلَلٌ (٧) وَجَّه بمعنى توجّه .

تعليق:

قوله "ثمَّ وجّهن لأرض تنتجع" يعني أرض قومه بني بكر . ولقد قال من قبل في البيت (٢٠) :

كَمْ قَطَعْنا دُونَ سَلْمَى مَهْمَهًا نازِحَ الْغَوْرِ إذَا الآلُ لَمَعْ

فزعم أنه قطع المهمه من أجل اللحاق بسلمى ، وهنا قال إن خيله توجَّهت لأرض طيبة ينتجعها الناس ، يطلبون المرعى فيها ، النُّجْعة بضم النون أي طلب المرعى والكلأ (أي الحشيش الذي يُرعى) وانتجع أي طلب المرعى ، ومكان مُنْتَجَعٌ أي طيّب فيه مرعى وتحسن به الإقامة .

ولذلك زعمنا أن سلمى أو رابعة كما هي محبوبة توصف بحسن المنظر وحسن الحديث هي أيضًا رمز لديار الشاعر ولقومه . وهذا الأسلوب كثير في الشعر ، حتى في شعرنا العامي موجود ، فقد قال خليل فرح رحمه اللّه :

عزٌّ في هواك عز نحن الجبال

يعني يا بلدنا العزيز نحن كالجبال الراسية في حبك والدفاع عنك .

(٣٠) ثم فسر الشاعر هذه الأرض التي تُنْتَجَعْ وبيَّن حقيقتها أنها ديار قومه بني بكر وهم فيها كالملوك وهي مملكتهم أي الديار التي يملكونها ويدافعون عنها ويقيمون فيها مآثرهم ومفاخرهم :

مِنْ بَنِي بَكْرٍ بِها مَمْلَكَةٌ مَنْظَرٌ فِيهم وفيهِمْ مُسْتَمَعْ

مُسْتَمَعٌ مصدر ميمي من استمع . أي هذه الديار التي فيها مملكتهم هم فيها أهل منظر جميل (٨) وحديثهم يجذب الأسماع إليه . وهم فيهم منظر وفيهم مُسْتَمَعٌ أي ما يستمع إليه .

تذكر أيها القارىء قوله من قبل في رابعة بعد أن وصف ثغرها ووجهها وطرفها وشعرها وخُصَلَهُ السابغة :

تُسْمِعُ الْحُدَّاثَ قَوْلاً حَسَنًا لو أرادُوا غَيْرَهُ لم يُسْتَمَعْ

(٣١) وتذكَّر أيها القارىء الكريم أيضًا قوله في أول القصيدة عن رابعة في أول النسيب الذي نسب فيه :

بَسَطَتْ رَابِعَةُ الْحَبْلَ لَنا فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ منها ما اتَّسَعْ

وهنا في هذا البيت الحادي والثلاثين يقول في مدح قومه والفخر بهم :

بُسُطُ الأيْدِي إذَا ما سُئِلُوا نُفُعُ النَّائِلِ إنْ شَيْءٌ نَفَعْ

استعمل في الدلالة على مروءتهم وكرمهم نفس اللفظ الذي استعمله من قبل وهو البسط . وبسط الأيدي بالمعروف مدها بالمعروف .

وصف قومه بأنهم كرام يبسطون اليد بالكرم حين يسئلون وعطاؤهم سمح يعطونه بنفس سخية ولذلك يكون نافعًا . إن شيء نفع فعطاؤهم من الأشياء النافعة حقًا وبعض عطاء الناس لا ينفع لأنهم لم يبذلوه بسماحة النفس .

بُسُط جمع بسيط والبسيط هو المسماح الكريم المتهلل ويجوز أن نجعلها جمعًا للباسط يده بالمعروف ولكن صيغة فُعُل بضمتين الغالب فيها أن تكون في الجمع لفعول وفعيل (٩) .

ونُفُع بضمتين جمع نفوع أي عظيم النفع والفائدة مثل نفَّاع في المعنى والنائل هو العطاء .

(٣٢) قومي من أناس أهل فضل وخير وخلق حسن ، ليس في طبعهم الإسراع إلى القول الفاحش ولا عدم الصبر عند المصيبة . قوله لا يُسرعون إلى الفحش ولا يعجلون إليه عنى به أنهم لا يكون منهم فحش في القول أبداً حتى يعجلوا به كعجلة غيرهم . لم يرد نفي العجلة وحدها ولكن أراد نفي الفحش كله عنهم . والجزع هو كما قدمنا القول ، عدم الصبر عند المصيبة ، جَزِعَ يَجْزَعُ جَزَعًا فهو جَزِعٌ وجزوع . قال تعالى : "**إنّ الإنسانَ خُلِقَ هلوعاً إذا مسّهُ الشّرُّ جزوعاً وإذا مسّهُ الخيرُ منوعاً**" ، صدق الله العظيم .

(٣٣) وقومي أهل صدق وعدالة وجد يعرفون الحق حين يكون لهم أو عليهم ولا يَعْيَوْنَ به أي لا يعجزون عن معرفته أو يترددون أن يعترفوا به لهم أو عليهم ، وعندما يجيء أمر كريه مُرّ فهم ليسوا ضعفاء ولكن يواجهونه بقوة . عَيَّ وعَيِيَ بالأمر أي أعياه الأمر ولم يستطعه [١٠] . خَرِعَ يَخْرَعُ خَرَعًا أي ضعف والخرِعُ الضعيف والخَرَعُ الضعف - وخرِعَ الرجل في أمره إذا لان في أمره وتساقط من العجز والضعف .

(٣٤) ثمَّ ذكر كرم قومه بالطعام في زمان الحاجة وأشد ما كان الناس يحتاجون إلى الطعام زمان الشتاء عندما تهب الرياح من الشِّمال - الشِمال بكسر الشين الجهة والشَمال بفتح الشين الريح التي تجيء من الشِّمال ويُقال لها الشَّمْأَل بالهمز .

قومي يُطعِمون الطعام في زمن أشد الحاجة إليه وذلك زمن الشتاء عندما تهب الريح شَمالاً ويُطعمونه كثيراً طيّبًا مطبوخًا في قُدُورٍ ضخام ضامناتٍ للشِّبَع ولا يضعون فيها شيئًا قليلاً . تقول العرب أجاع فلان قِدْرَهُ أي لم يجعل فيها لحمًا كثيراً . فقوله هنا "في قدور مُشْبَعاتٍ لم تُجَعْ" أي مملوءة فيها اللحم الكثير :

(٣٥) ويُنقل اللحم من القدور إلى جِفانٍ كبيرات كلُّ جَفْنَةٍ كأنها جابية من اتساعها . الجفنة وعاء كبير يوضع فيها الطعام وقد تصنع من الخشب ومن

النحاس ومن غير ذلك . والجابية هي حفرة الساقية التي فيها الماء .
هذه الجفان مملوءةٌ بلحم من لحم الإبل السمينات الأسْنِمَةِ - التَّرَعُ بالتحريك الامتلاء . أتْرِعْ إناءك أي أمْلأهُ . الذُّرَى : ذِرْوَةُ كل شيء أعلاه وذُرَى الإبل أسْنِمَتُها ولحم السنام من أطيب اللَّحم .

وقوله : "وجفان كالجوابي" أخذ من القرآن ، إذ ذكر الله سبحانه وتعالى الجن الذين كانوا يعملون لسيدنا سليمان فقال تعالى :

(يعملون لهُ ما يشآءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجِفَانٍ كالجوابِ وقُدُورٍ راسيات) ، صدق الله العظيم
"سورة سبأ الآية : ١٣" .

(٣٦) وقومي أوفياء لا يخاف من جاورهم أن يغدروا به أو أن يطمعوا في ما عنده فيحسدوه ويتعدوا عليه . الطَّبَعُ بالتحريك العيب وسوء الطمع - قالوا والطَّبَعُ صدأ ووسخ يركب القلب من شدة الطمع وفساد الخُلُق - قال الشاعر :

لا خيرَ في طمعٍ يُدني إلى طبعٍ وغُفَّةٌ من قِوَامِ العيشِ تكفيني

الغُفَّةُ من العيش أي الْبُلْغَةُ من العيش ، القليل الذي يُقيم به المرء قوت يومه . وهذا البيت يدل على أن الطَّبَعَ شرٌّ من الطمع .

(٣٧) وقومي كرماء مساميح أهل جود يجودون بالنفيس الذي يبخل به الناس ونفوسهم طيبة خالية من الطمع السيىء . حسر نفسه غن كذا أي كفَّها ومنعها من كذا ، المضارع يحسُر بضم السين فهم يمنعون أنفسهم من الطمع السيىء .

ضنَّ بالشيء يضَنُّ به بالفتح ويضِنُّ به بالكسر أي يبخل وضُنَّ بالشيء بالبناء للمجهول أي بُخِلَ به وهذا الشيء عِلْق مَضِنَّةٍ وعِلْق مَضَنَّةٍ بفتح الضاد وكسرها أي نفيس مما يُبْخَلُ به .

(٣٨) وقومي حسنو الوجوه مشرقوها لم يعن أنهم بيض الألوان كالافرنج فالعرب لم تكن تعرف في ألوان رجالها ونسائها هذا اللون . وقومي أهل شجاعة

وشرف وليسوا جبناء ولا يخافون إذا جاء زمان الفزع أي الخوف واستنجد بهم الناس ليحموا ويدافعوا . مراجيح أي ثابتون لا يخفون جزعًا إذا جد الْفَزَع إذ صار الاستنجاد من أجل الدفاع والحماية أمر جد وحزم . والْفَزَع بمعنى النجدة وقت الخوف والتعاون بين الناس على ذلك مستعملة في لغتنا العامية . وأصل معنى الفزع الاستغاثة والإغاثة عند الخوف . ويدل أيضًا على الخوف . وأفزعت فلانًا أخفته . وفَزِعَ فلانٌ إلى فلان أي استغاث به أو أغاثه ونصره . وكان أنصار الرسول صلى اللّه عليه وسلم ورضي تعالى عنهم يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع وذلك لإخلاصهم وصدق إيمانهم .

(٣٩) وُزُنُ الأحلام أي راجحو العقول ، تزيد أحلامهم أي عقولهم على غيرهم إذا وازنا بينهم وبين غيرهم ، وهم شجعان عند البأس أي في الحرب حين تشتد ، هو ذو عقل وزين أي راجح ، وحَلُمَ فلان حلمًا فهو حليم أي راجح العقل له أناة ورويّة وتفكير في عواقب الأمور وهم وُزُنُ الأحلام - وُزُن جمع وزين .

صادقو البأس أي يصدقون القتال شجعانًا في الحروب. البأس الشدّة والقتال والحرب . "إذا البأسُ نصع" أي اشتد ووضحت شدته ويُروى :

رُجُحُ الأحْلاَمِ إنْ هُمْ وُزِنُوا صَادِقُو الْبَأْسِ إذَا الْبَأْسُ وقَعْ

أي عقولهم راجحة ، رُجُح جمع رجيح وهم مراجيح مساميح ومراجيح لا مفرد لها في الاستعمال ، ومساميح مفردها مِسْماح وهو مستعمل .

(٤٠) وقومي في شجاعتهم مثل الأسود التي تُتَّقي أي تخاف صَوْلَتُها . والعرّة : الأذى أي يخاف الناس الأذى الذي تسببه هجمتها الشديدة . وهم حلماء ليسوا بخفيفين تطير أحلامهم مع كل ريح . هم أهل هدوء وأناة . عبَّر عن هذا بقوله : ساكنو الريح أي ريح أحلامهم أي ريح عقولهم ساكنة لا تهيج كالإعصار ذي الغبار الذي يكدر الدنيا ثم يصير إلى لا شيء . ريحهم ساكنة

وهم هادئون حين يخف غيرهم من الناس الذين يتطايرون كقطع السحاب المتفرقة التي تسوقها الريح لخفتها وخلوها من الفائدة إلى جهات مختلفة .

وذم سيدنا علي بن أبي طالب كرَّم اللّه وجهه قومًا فقال إنهم يجتمعون (كما يجتمع قَزَعُ الخريف) يعني أنهم يجتمعون متفرقين ويتفرقون من بعد .

(٤١) لمَّا وصف قومه بالشجاعة وأنهم أسود تُخَاف صَوْلَتُها قال فبهم تحدث النكاية في العدو والانتقام منه . وبهم يُضَمُّ الشَّقُّ إذا حدث شقٌّ وانصداع في أمور الناس . رَأَبْتُ الشيء أَرْأَبُه أي أصلحته . والشعب الشيء المتفرق . انشعب الإناء أي انشق . رأبت شعب الإناء أي أصلحته . والشعب أيضًا الشيء الملتئم ، فالكلمة من الأضداد ، ومن قولنا هم شعب واحد . انصدع الشعب أي انشق الشيء الملتئم ونكيت في العدو أنكِي بكسر الكاف أي صنعت به الضرر والأذى . ونكأْتُ القرحة أنكأُها أي قشرتها نَكْأً . انصدع أي انشق . الصدع : الشق .

(٤٢) وقومي مجدهم قديم ، وعادة الشرف فيهم قديمة ، وليس شرفهم بالشيء الجديد الذي ليس له أصل راسخ .

(٤٣) وقومي يحتملون ثقال الأمور التي يكلفهم واجب المروءة إيّاها . لا يعجزون عنها ويَظْلَعُون لثقلها كما يَظْلَعُ البعير الذي يُوضَعُ فوقه أكثر مما يتحمل من الأحمال . والشِّف بكسر السين الزيادة . أي هم يطيقون كل ما يكلفونه ولا يعجزون ولايظلعون كما يظلع البعير ذو الشف أي ذو الزيادة من الأحمال التي ثقلها يزيد على طاقته .

والأحمال التي يعنيها هنا مثل إخراج المال للضيافة والمعاونة في دفع الديات من أجل الصلح بين القبائل .

(٤٤) ولأن شرف قومنا معروف فإنهم لا يُؤَاخون إلاّ من كان مثلهم في شرف الأصل وصلاح الأخلاق . قال الشاعر :

عن المرءِ لا تسأل وسَلْ عن قرينِه   فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يقْتَدِي

فهم لا يُؤَاخون من كان وضيع الأصل قليل الخير ولذلك فإخوانهم نظراؤهم الأخيار وسراة الأصل من الناس أي كرماء الأصول من الناس . أكفاءٌ من كُفْء والكُفْءُ هو النظير(١١) . وسراة جمع سَرِيّ والسَّرِيُّ هو السيد الشريف من الناس . قال الشاعر :

لا يصلحُ الناسُ فَوْضَى لا سراةَ لهم   ولا سراةَ إذا جهَّالُهم سادُوا

أي إن قومي على طريق بيِّن من المروءة والصلاح والمحافظة على الشرف ومن كان على هذا الوجه وعلىْ هذا الطريق كان من خلانهم . وقومي سراة الأصل يؤاخون سراة الأصل . بقية الناس أصناف متفرقون ، شيع متفرقة كل طائفة يتشيعون ويتعصبون لأنفسهم وكلمتهم متفرقة - هذا معنى سويد : "والناس شِيَعْ" أخذه من قول الله تعالى : " **إنَّ الذين فرَّقُوا دِينهُم وكانوا شِيَعاً لستَ منهُم في شيءٍ** " أي أنت بريء من تفرقهم وضلال أمرهم ، (سورة الأنعام : ١٥٩) .

تعليق :

إلى هنا ينتهي القسم الذي ظنه المستشرق كارلوس ليال قصيدة قائمة بنفسها والحق كما قدمنا أنه عبارة عن أربعة فصول من فصول هذه القصيدة الاثني عشر ، جعلها كلها تمهيداً لما سيأخذ فيه من بعد من الفخر ببني يشكر ثم من الخصومة بينه وبين عدوه الذي ناضله وانتصر هو عليه .

وقد ذكرنا أن المعاني التي افتتح بها نسيبه من عطف المحبوبة ، وبسطها حبل المودة ، وحسن حديثها ، وجمال منظرها ، وسحر كلامها ، وكمال خلقها هي نفسها المعاني التي مدح بها قبيلته الكبرى بني بكر .

وبعد مدحه القبيلة الكبرى يندفع اندفاعة جديدة يجيء أولاً فيها بشيء من النسيب يُحرِّك به نفسه وسامعيه ، ثم يصف رحلته ليلحق بالمحبوب ثم يفتخر

بقومه وقد جعل رحلته كما هي دالة على طلب اللحاق بالمحبوب هي أيضًا رمز ليصل إلى ذكرهم والافتخار بهم .

ومن بعد يأخذ في ذكر عدوه وما كان بينهما من الخصومة والمساجلة ثم كيف انتصر عليه بفصاحته وبيانه وثبات جنانه (أي قلبه) .

(٤٥) أرَّقَ العَيْنَ خَيَالٌ لَمْ يَدِعْ مِن سُلَيْمَى فَفُؤادِي مُنْتَزَعْ

في هذا البيت ما يسمى "بالتصريع" [١٢] . وهو أن يكون البيت في أثناء القصيدة فيه قافية في صدره وفي عجزه . والشعراء يفعلون هذا عندما يبدأون فصلاً جديدًا في القصيدة أو يأخذون في بيان معنى جديد . مثلاً بدأ امرؤ القيس معلقته بقوله :

قِفَا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بسِقطِ اللِّوَى بينَ الدَّخول فحَوْمَلِ

هذا مطلع القصيدة وهو مقفى في الصدر والعجز وهذا تصريع وكثير من مطالع القصائد تكون مصرعة . ثم قال من بعد في صفة الليل والحديث عنه :

ألا أيُّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انْجَلِ بصُبْحٍ وما الإصْباحُ مِنك بأمثلِ

فهذا البيت مقفى في صدره وفي عجزه وهذا التصريع . كذلك هنا في هذه القصيدة . ورُوِيَ هذا البيت بكسر دال يدعِ أي يتدع ويقر ويمكث . ولا بأس أن تفتح الدال [١٣] وتقرأ :

أرَّقَ العَيْنَ خَيَالٌ لَمْ يَدَعْ

أي لم يدعني فأنام وعندي أن الرواية بفتح الدال لعلها صحيحة لأن وزن "يدَعْ" مناسب لوزنِ "منتزَعْ" ويستحسن في القوافي المقيدة أي ذات السكون أن تكون حركة الحرف الذي قبلها متشابهة . والأنباري الكبير الذي نحن معتمدون على شرحه وروايته لم ينص على منع "يدَع" المفتوحة الدال ولكنه بيَّن أن الرواية "يدِع بكسر الدال" ولم يذكر أنه رواها هكذا عن شيخه .

ورُوِيَ أنَّ أبا عمرو قال لم يَدِعْ من الدعة والسكون أي لم يَتَّدِعْ ولم يتقارَّ حين جاءنا - أي مضى بسرعة ولم يمكث . وأبو عمرو المذكور ههنا هو بندار الكرخي أحد شيوخ الأنباري الكبير . ومن تكرار الأنباري لشرح هذه الكلمة وسوقه الحجة على ذلك يلوح لنا بأن آخرين ربما كانوا يروون البيت بفتح الدال من "لم يدع" واللّه تعالى أعلم .

يقول سويد ، عائدًا إلى معنى الطيف والذكرى ليُجدِّد نشاط نفسه إلى الاندفاع إلى البيان والتعبير :

إنِّي أرقت . أرَّق عيني خيال زارني من الحبيب ولم يمكث طويلاً . ألمَّ بزيارته فهيَّج شوقي وأرَّق عيني . وهو طيف خيال زارني من سليمى . فكأنَّما انتزع فؤادي انتزاعًا من شدِّة الشّوق إليها .

تنبَّهْ أيها القارىء الكريم إلى أنَّه صغَّر اسم سلمى فجعله سُليمى وهذا يناسب ما سيصير إليه من بعد من الحديث عن قبيلته الصغرى بني يشكر ثمَّ عن نفسه . والتصغير يستعمل للتحبيب وللتمليح .

والعرب كثيراً ما تزعم في أشعارها أن المحبوبة من قبيلة أخرى ، هذا أسلوب لهم وإن كانت من نفس القبيلة .

(٤٦) يقول : هذه المحبوبة بعيدة الدار من داري . حلت جانب الحصن وهو موضع بعينه . وقيل الرواية الصحيحة "حلَّ قومي جانبَ الحَضْرِ" والحضر مدينة قديمة بالعراق وهي مدينة الموصل وبنو يشكر كانوا بدواً وربما طلبوا المرعى فأبعدوا النُّجعة إليه . والفَرَعْ موضع بين الكوفة والبصرة فجعل محبوبته من القبائل التي تسكن هناك ، ليُعبِّر عن بعدها وشوقه إليها ، وصعوبة لقائها .

(٤٧) قال ولبعدها هذا فأنا لا أستطيع لقاءها مع أني أُحبُّها وقلبي مشغول بها وهو أسير عندها . إنما ألقاها إذا نامت عيني . يأتيني طيفُها ويزول بسرعة . فلقائي لها إلمامةٌ يسيرة بها في المنام حين يهجع الطرف .

(٤٨) ثم وصف ما رآه من جمال بشرة طيفها في المنام . قال هي كالتُّؤامية أي بشرتها ناعمة صافية كالدُّرة التُّؤامية ، أي التي يجيء بها الغواصون من الخليج في الساحل الذي يقال له تُؤام وهو ساحل عُمَان والبحرين حيث يُغاص على اللؤلؤ .

هذه المرأة ناعمة البشرة إن ظفر المرء بها قرَّت عينه ، أي سرَّ سرورًا عظيمًا وأعجبه مضجعه بقربها وسرَّه اضطجاعه إلى جانبها .

(٤٩) ولكن لا سبيل إلى ذلك لأنها قد بكرت أي هبَّت من أول الصبح مُزْمِعَةً عازمة على نية السفر ، وقد حدا الحادي بالرحيل واندفعت جِمالُها مبتعدة بها واندفع الحادي بالإبل في الصحراء .

(٥٠) وتركني هائمًا . وترك رجلاً كريمًا ، هو أنا ، مكبَّلاً في حُبِّها ، وقلبه ذاهب وراء الحي الذي ارتحل وارتحلت فيه محبوبته .

يقال : غَلِقَ الرَّهْنُ أي فاتت مدة خلاصه ولم يستطع صاحبه أن يرده والشعراء تزعم أن قلبها مرهون عند المحبوبة وقد غلق الرهن أي فاتت مدته وعسر فكاكه ، والقطين الأهل الساكنون معًا . أي قلبه قد اتبع هؤلاء الراحلين هؤلاء القطين الذين كانوا معهم في الحي قد ساروا واتبعهم فؤاده فهو بحبه لهم أسير مكبل عندهم . هذا آخر الفصل الخامس .

تعليق:

لأن قلبه مرهون عند المحبوبة وأسير لقطينها الراحل ، فإن الشاعر لا يستطيع إلاّ أن يتبع القطين الراحل ، الحي الذي رحل بمحبوبته . وقد فعل ذلك . ولأنه هذه المرة مضطر إلى قطع مسافات رمال الصحراء البعيدة ، فقد ركب ناقة وأسرعت به وهي قوية قادرة على قطع المفازة العظيمة والشاعر يُشبِّهها بالثور الوحشي ويصوِّر شدّة نشاطها ويزعم أن هذا الثور حفَّت به كلاب الصيد ، وحاول رميه

صاحبها ولكنه نجا وانطلق فلا يجري شيء مثل جريه - ناقتي كهذا الثور في انطلاقها ومضائها وقوتها .

والشاعر كما قدمنا يجعل راحلته رمزًا لنفسه ، وكذلك هذا الثور بنشاطه ونجاته هو أيضًا رمز لنفسه ولدفاعه عنها وانتصاره على خصمه .

(٥١) ومن هنا يبدأ الفصل السادس وفيه وصف الرحلة على الناقة والثور الوحشي . يقول سويد : فكأني مندفعًا (١٤) فوق راحلتي وقد جرى السَّراب في الضحى عند بدء الحر في الاشتداد وارتفاع الشمس وسطوعها ، كأنني على ظهر ثور وحشي طويل الذيل (ذيَّال) وفي خديه خطوط حمر ضاربة إلى السواد . الأسفع هو الذي كأنه محروق بالنار خالط حمرته لون سواد . السَّفَع بالتحريك والسُّفْعَةُ السواد الضارب للحمرة . والثور الوحشي لونه أبيض إلاّ وجهه وقوائمه ، وجهه فيه سَفَعٌ وكذلك قوائمه .

(٥٢) كُفَّ خَدَّاهُ عَلى دِيبَاجَةٍ وَعَلى المَتْنَيْنِ لَوْنٌ قد سَطَعْ

الديباج نوع من الثياب فاخر يضرب إلى السواد والحمرة . خدَّا هذا الثور كأنَّما كُفَّا أي ضُمَّا على ديباجة ، أي كأنهما قطعة من الديباج مضمومة ، لحمرتهما الضاربة إلى السواد أو سوادهما الضارب إلى الحمرة ، وعلى المتنين أي على جانبي الظهر لون قد سطع أي قد بدا باهرًا ساطعًا بياضه في ضوء الشمس .

(٥٣) يَبْسُطُ المَشْيَ إذَا هَيَّجْتَهُ مِثْلَ ما يَبْسُطُ في الخَطْوِ الذَّرَعْ

الذَّرَعُ هو العجل الصغير وهو نشيط يبسط خطوه مرحًا ولعبًا لصغره ومرحه . يقول هذا الثور الوحشي يبسط المشي أي يُسرع فيه ويشتد إذا هيجته ويكون في وثبه ونشاطه واتساع خطواته شبيهًا بالذَّرع وهو ولد البقرة الصغير .

وهذا الوصف بحركة النشاط المرحة كما ينطبق على الثور الوحشي ينطبق على راحلته المشبهة بالثور الوحشي ، وينطبق على الشاعر نفسه لأن نشاط راحلته طرف من نشاطه هو .

ولا شك قد تنبهت لاستعمال الشاعر للفظ "يبسط" وتكرار هذا اللفظ في القصيدة . جعله أول الأمر لرابعة المحبوبة . ثمَّ لقومه بني بكر "بُسُطُ الأيدي" ثم الآن للثور الوحشي "يبسطُ المشيَ إذا هيَّجته" .

(٥٤) هذا الثور الناشط فاجأه فراعه أي أخافه صائد من بني طيىء ، وكانوا معروفين بجودة الرمي ، من أسهم يرمي بها ومعه ضِرَاءٌ أي كلاب ضارية متعودة على الصيد ، مدرَّبة ، واحدها ضِرْوٌ للذكر وضِرْوَةٌ للأنثى وضرَّيت الكلب تَضْرِيَةً دربته ليكون ضاريًا بالصيد .

يقول هذا الصياد معه قوسه وأسهمه ومع ذلك كلابه الدَّوارب بالصيد ، الضارية المعوَّدة عليه ، التي تبرهن بقوة جريها على مقدرتها الفائقة وتُبْلِي أوتار الصائد أحسن البلاء أي تُعطيه عن مقدرتها أجود دليل . تقول اختبرت فلانًا فأبْلَى بلاءً حسنًا أي فجاز الاختبار بتفوُّق .

الشِرَع بكسر الشين وفتح الراء جمع شِرْعة وهي الوتر في القوس ومنه يكون الرَّمْيُ . وإذا أراد الصائد إغراء كلابه بالثور ، وشدَّ الوتر ورمى فأنَّ كان ذلك علامةً يُغري بها كلابه ، فهنَّ ينطلقن وراء الثور مع انطلاق السهم ويُبْلِين بجريهن أحسن البلاء ، ويبرهنَّ للأوتار التي تُرسل السهام أنهنَّ سريعات كالسهام ، أنهنَّ أيضًا هنَّ سهام يبارين السهام نفسها في السرعة وفي صدْقِهنَّ الاندفاعَ إلى الصيد .

تقول بلوته أي اختبرته فأبْلَى أحسنَ بلاءٍ . وبلا الصائدُ كلابه يبلوهنَّ أي اختبرهنَّ فأبْلَيْنَ أحسن البلاء . وبَلَتِ الشِرَعُ الكلابَ أي اختبرتها حين أرْسِلَتْ مرميةً عنها السهامُ فأبلتها الكلاب وكنَّ يبلينها بسرعة جريهنَّ أي يعطينها نتائج نجاح باهر من السرعة .

وهذه مبالغة لأن الكلب لا تبلغ سرعته سرعة السهم ، ومن قَبْلُ قد جعل سويد خيلَهُ كالسهام التي يُغَالي بها في الرمي فقال في البيت (٢٦) :

كالْمَغَالِي عارِفَاتٍ لِلسُّرَى   مُسْنَفَاتٍ لَمْ تُوَشَّمْ بالنِّسَعْ

(٥٥) رأى الثور الكلاب ولم يستبنهنّ إما بسبب الغبار الذي أثاره جريهنّ وإما لبعض الصعف في بصره إذ جنس الظباء موصوف ببعض الصعف في بصره .

و " كِلاَبُ الصَّيْدِ فيهنَّ جَشَعْ " أي حرص وإفراط في شهوة ما سيكون لهن طعامًا لأن الصائد سيُعطيهنَّ لحم الثور متى صيد عليه .

(٥٦) لمَّا تبيَّنهنَّ الثور وأيقن أنهنَّ يردن صيده ولَّى هاربًا وحوله جنابان من غبار أكدريّ اللون أي فيه كدرة الغبار ثمَّ بعد اندفاعة الجري الأولى اتَّدع أي سكن وهدأ شيئًا ولم يجتهد في العدو أي الجري كاجتهاده الأول .

(٥٧) ولأن الثور عدا أول الأمر عدوًا سريعًا حين ولَّى وحوله جنابان من الغبار فقد تقدَّم على الكلاب وجعل يتمهل شيئًا في جريه ، وانطلقت الكلاب وراءه بعدو شديد يختلين الأرض بأظافرهن ، أي ينتزعن ما عليها من نبات الخَلَى وهو العشب الرطب وهنَّ مسرعات . اختلى يختلي أي اقتطع الخَلَى يقتطعه ، وسبق تفسير الخلى بأنه العشب ويقال له الرُّطب بضم الراء ما دام رَطْبًا بفتحها والحشيش إذا كان يابسًا والكَلأُ أعمّ ، "والشاة يَلَعْ" أي الثور يعدو عدوًا جيِّدًا ولكن غير مفرط السرعة تقول ولع الثَّور يَلَعُ وَلْعًا . على مهلته أي على تقدُّمِه عليهم وسبقِه لهن بجريه الأول .

(٥٨) أي هذه الكلاب دنت ولكن لم يلتبسن به أي لم يخالطنه بِعَضِّهِنَّ له وقتالهن ، والكلاب واثقات أنه إن كرَّ عليهنَّ راجعًا فسيقتل منهن ويجرح ، وهن سيَعْضَضْنَهُ ويجرحنه وتسيل الدماء منه ومنهن ، وكن خائفات من قَرْنه الذي سيهاجمهنَّ به .

(٥٩) يُرْهِبُ الشَّدَّ إذَا أَرْهَقْنَهُ وإذَا بَرَّزَ مِنْهِنَّ رَبَعْ

(٦٠) سَاكِنُ الْقَفْرِ أَخُو دَوِّيَّةٍ فإذَا ما آنَسَ الصَّوْتَ امَّصَعْ

ويُرْوَى : يُلْهِب الشدّ ويُهْذِب الشدّ والشدّ هو الجري الشديد ، وإهذابه وإلهابه أي الاشتداد فيه وكذلك يُرْهِبه أي ينقل شعوره بالرهبة والخوف إلى جَرْيِ قوائمه ، فجَرْيُه جَرْيُ خوف يريد به لنفسه النجاة من الهلاك ، إذا أرهقته هذه الكلاب أي اقتربت من إدراكه فانه يشتد في جريه اشتدادًا ، فإذا برَّز منهن وابتعد مسافةً رَبَعَ أي كفَّ من اشتداد الجري ووقف ليستريح وليستعد لهن .

هو ثور مسكنه القفار ، أخو الدَّوية أي الصحراء التي يُسمع فيها باللّيل دوُّ الجن لخلوها من الناس ولتهيّج الرياح في مداها الواسع . الثور معتاد على دويّ الصحراء . وهو ذو سمع حادٍّ . فمتى أحسَّ صوتًا يدلّ على حركة إنسان كحركة كلاب الصيد أو رنَّة الأوتار التي تُرْمَى عنها السهام أو نحو ذلك فإنه يَمَّصِعُ أي يُسرع الجري إسراعًا . امَّصع أي انطلق مسرعًا أصله من مصع فصار انمصع ثم ادغمت النون في الميم .

تعليق :

واضح أن الثور نجا بامّصاعه فلم تدركه الكلاب التي كانت واثقة أنه متى عطف نحوها فإنه سيقتلها بقرنه الحاد ، ولم تصبه السهام التي كان يرسلها الصائد فتنطلق الكلاب مع إرساله لها .

وكذلك امَّصعت ناقة الشاعر في إسراعها لتُدرك به سليمى التي حلَّ أهلها بعيداً عن مكانه :

حَلَّ أَهْلِي حَيْثُ لا أَطْلُبُهَا جَانِبَ الْحِصْنِ وَحَلَّتْ بِالْفَرَعْ

أي حلَّ أهلي في مكانٍ لا أستطيع أن أطلبها فيه لا بدَّ من السير إلى حيث حلَّت بالفَرَع .

وأشعرنا سويد أن ناقته قد بلغت به المكان الذي قصده بسيره السريع وامّصاع ناقته كما امَّصع الثور حين أرهقته الكلاب .

وهكذا ينتهي الفصل السادس وينتقل بعده الشاعر إلى الفخر ، إذْ كما انتصر الثور على الكلاب انتصر هو أيضًا على مشقة الصحراء وخلص إلى مطلوبه ولحق محبوبه ، فحقّ له أن يفتخر بنفسه وبقومه .

(٦١) من هذا البيت يبدأ الفصل السابع من القصيدة وهو فخر مباشر بضمير المتكلم الجمعي (نا) :

كَتَبَ الرَّحْمنُ ، والحَمْدُ لَهُ ، سَعَةَ الأخْلاَقِ فِينَا والضَّلَعْ

الضّلع هو احتمال المسؤولية والاضطلاع أي القيام التَّام بأمور الناس وتقول هو مضطلعٌ بحوائج الناس إذا كان قويًا على ذلك قادرًا عليه والضَّلَعُ يدلّ على القوة والشدّة وأصله من الضلاعة أي شدة الأَضْلاَعِ – ضَلُعَ الرَّجُلُ فهو ضليع .

والتعابير في هذا البيت إسلامية . وقوله سعة الأخلاق فيه لفظ السعة وهو الذي استعمله في أول القصيدة حيث قال :

فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ منها ما اتَّسَعْ

(٦٢) وكتب اللّه لنا أيضًا أننا أهل إباء وعزَّة نأبى الدنايا ولا نخضع مثلما يخضع الشخص الذي يكثر عليه الأعداء ولا يجد نصيرًا . المكثور الذي كثر عليه أعداؤه وغلبوه – كَنَع كُنُوعًا أي ذلَّ وخضع .

(٦٣) وكتب اللّه لنا أننا نبني المعالي ، هذا عطاء اللّه ، أعطانا اللّه ، واللّه يرفع من يشاء ويضع من يشاء ، ويعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء . ولا يخفى أن هذا الكلام إسلامي الروح ليس من كلام الجاهلية .

(٦٤) واللّه جلَّ جلاله لا يريد في إرادته العالية أن يحولنا عن هذه الحالة العالية أبد الدهر ، فأنتم يا حسادنا دُونَكُمْ جُرَعَ الموت المرة فتجرَّعوها من غيظكم على ما خصَّنا اللّه به من الفضيلة وللموت جرعات مرّة : حوَلاً : تحويلاً . جرعَ الموت منصوبة بفعل مقدر أي اشربوا جرع الموت غيظًا . أو منصوبة على أنها صفة معنوية لقوله "وبناء للمعالي" بناء يجرعكم غيظًا ، يجرعكم جرع الموت . بناءً جُرَعَ الموت لكم أي كجُرَع الموت لكم من شدة إغاظته لكم .

(٦٥) إباء الدنيات وبناء المعالي وسعة الأخلاق والضَّلَع والقوة على احتمال شدائد الأمور والاضطلاع بالمسؤوليات العظام ، هذه نعم اللّه ربَّاها فينا وخصنا بها وهذا صنيع اللّه الذي صنعه ومن يستطيع أن يصنع مثل صنع اللّه عزّ وجل . قال تعالى : ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ صدق الله العظيم . "سورة النمل - آية ٨٨" .

رَبَّ يربُّ : أي أصلح الشيء وأتمَّه .

(٦٦) يقول الشاعر بعد أن وصف قومه بسعة الأخلاق وأن ديارهم ديار العزّ : كيف أقدر على الاستقرار بعيدًا عنهم وأنا رجل حر ذو عزّة وإباء في بلاد ليس فيها اتساع بلادي ، لا في حسن الأخلاق ولا في كرم المعيشة . شاحط : بعيد الدار . مُتَّسَعٌ : اتساع ، مصدر ميمي من اتسع .

تعليق :

زعم أحد شيوخ أبي محمد الأنباري وهو أبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح أن أبا عكرمة شيخ الأنباري وصاحب رواية قصائد المفضليات التي هي الآن بأيدينا قد أخطأ في ترتيب الأبيات التي تقدّمت . وأن ترتيبها الصحيح هو هكذا :

كَتَبَ الرَّحْمنُ ، والحَمْدُ لَهُ، سَعَةَ الأخْلاَقِ فينَا والضَّلَعْ
وإبَاءً لِلدَّنِيَّاتِ إذَا أُعْطِيَ الْمَكْثُورُ ضَيْمًا فكَنَعْ
وبِنَاءً لِلْمَعالِي ، إنَّما يَرْفَعُ اللّهُ ومَنْ شاءَ وَضَعْ
نِعَمٌ لِلّهِ فِينَا رَبُّهَا وصَنِيعُ اللّهِ ، واللّهُ صَنَعْ
كَيْفَ باسْتِقْرَارِ حُرٍّ شَاحِطٍ بِبِلادٍ لَيسَ فيها مُتَّسَعْ
لا يُرِيدُ الدَّهْرَ عنها حِوَلاً جُرَعَ المَوْتِ ولِلْمَوتِ جُرَعْ

ومن أجل هذا زعم المستشرق كارلوس ليال أن في الأبيات من القسم الثاني من القصيدة (من البيت ٤٥ إلى ١٠٨) فجوات .

وتابع الأستاذان ، د. عبدالسلام محمد هرون والشيخ أحمد محمد شاكر رحمهما اللّه المستشرق ليال فرتَّبا القصيدة في تحقيقهما كما رتَّبها هو في ترجمته (ص ١٩٧ - ١٩٨ من طبعة القاهرة الأخيرة) .

وقد احترس ليال فلم يُرتِّب الأبيات في النَّص العربي إلاّ بترتيب الرواية الأصيل الذي أخذه أبو محمد الأنباري عن أبي عكرمة الضبي عن ابن الأعرابي عن المفضل الضبي نفسه - رحمهم اللّه جميعًا .

على هذا لا يجوز تغيير الترتيب الذي جاءت به الرواية الصحيحة من أجل النقد الذي انتقد به أبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح رواية عكرمة .

والمعنى واضح صالح مستقيم وجيّد بحسب الرواية الأصيلة . ويصير إلى معنى آخر بحسب الترتيب المُغَيَّر :

كَيْفَ باسْتِقْرَارِ حُرٍّ شَاحِطٍ بِبِلادٍ لَيسَ فيها مُتَّسَعْ
لا يُرِيدُ الدَّهْرَ عنها حِوَلاً جُرَعَ المَوْتِ ولِلْمَوتِ جُرَعْ

إذ يصير الذي لا يريد التحوّل هو الشاعر الحرّ الشاحط .

يبدو أول الأمر أن ظاهر هذا المعنى مستقيم ، ولكن التأمل له يرينا عدم استقامته . قوله : " كَيْفَ باسْتِقْرَارِ حُرٍّ شَاحِطٍ " يدلُّ على أنه يريد التَّحول عن هذه الديار التي هو فيها شاحط أي بعيد وليس فيها متَّسع . وقوله من بعد " لا يُرِيدُ الدَّهْرَ عنها حِوَلاً " يناقض هذا المعنى . نعم يجوز أن تقول كيف يستقر ولا يطلب أن يتحول ، وهذا الأسلوب فيه تطويل وتكرار . والصواب التزام الرواية التي جاء بها الأنباري مسلسلة عن شيوخه . والله تعالى أعلم .

لاحظ أن الشاعر وصف نفسه بأنه حر وشاحط وهي نفس الصفة التي وصف بها حبيبته :

حُرَّةٌ تَجْلُو شَتِيتًا واضِحًا (البيت ٢)

شَاحِطٍ جَازَ إلى أرْحُلِنَا (البيت ٩)

ووصف الدار التي يريد الاّ يستقر فيها بأنها ليس فيها متسع . وفي أول القصيدة :

فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ منها ما اتَّسَعْ

ووصف قومه من بعد بسعة الأخلاق .

والمحبوبة في الشعر القديم كثيراً ما تكون رمزًا يرمز به الشاعر إلى نفسه وإلى قومه وإلى آماله ومطالبه وأمانيه .

(٦٧) من هذا البيت يبدأ الفصل الثامن من القصيدة وقد مهَّد لهذا الفصل الذي جاء فيه بوصف عدوٍّ له جمع الحقد والنفاق والمكر والحسد لقوله الذي قاله من قبل في نعت قومه ونعم الله عليهم . والله لا يُريد بمشيئته العالية سبحانه وتعالى تحويل شيء من ذلك عنهم وليَذُقْ عدوهم المرارة وجرع الموت - قال سويد :

رُبَّ مَن أنْضَجْتُ غَيْظًا قَلْبَهُ قد تَمَنَّى لِيَ شَرّاً لم يُطَعْ

كما ترى هنا تحول الشاعر من ضمير المتكلم الجمع إلى ضمير المتكلم المفرد وكشف لنا عن نفسه بوضوح وصراحة جهيرة - قال :

ربَّ عدوٍّ لي غاظه شرَفي وعزِّي وأنضج ذلك قلبه بالغيظ عليَّ والحسدِ لي حتى تمنَّى لي الشرَّ وأن يزول ما عندي من نعم اللّه ، ولكنَّ مشيئةَ اللّه لم تجيءْ على مراده ، والأقدار الغالبة من عند اللّه لم تُطِعْهُ - لم يُطَعْ أي لم يُطَعْ بوقوع الشرِّ عليَّ كما تمنَّاه . هذا التعبير من الشاعر يُقوِّي صِحَّة رواية القصيدة كما رواها أبو عكرمة ويُقوِّي معنى :

لا يُرِيدُ الدَّهْرَ عنها حِوَلاً (البيت ٦٤)

أن الإرادة هنا إرادة اللّه عزَّ وجلَّ .

(٦٨) هذا العدو يراني كالغصَّة في حلقه ، كالشيء المعترض في حلقه لا يستطيع أن يبلعه ولا يتزحزح عن موضعه ولا يقدر على انتزاعه من حلقه .

الشَّجَا الشيء الذي يعترض في الحلق . شَجِيَ بكذا يَشْجَى به شَجًا أي اعترض كذا في حلقه ، عود أو عظم أو شوكة حوت ، أي شيء يعترض . وهو شجٍ بكذا ، والشَّجِي بدون تشديد أي المشغول المهموم . وقالت العرب وَيْلٌ للشَّجِي من الخَلِيِّ بتشديد الياء في الخَلِيِّ يعني ويل لمشغول البال من الذي باله خالٍ بلا هم .

وويل للشَّجِيِّ "بالتشديد" من الخَلِيِّ "بالتشديد أيضًا" ويل للمحزون من الذي لا حزن يَشْغَل باله .

(٦٩) هذا الشخص إذا كنت غائبًا يتوعَّد ويتهدَّد ، ويزبد من فمه بالغضب ، ويمشي متبخترًا باختيال ، ولكن إذا سمع صوتي وعلم أنَّي حاضر فإنه ينقمع أي يتخاذل ويتضاءل . هذا الشخص يهيج ويتعاظم عند غيابي فإذا رآني ضعف وانهار .

(٧٠) وقد كفاني اللّه شرَّه لأني أعوذ باللّه من شرِّه وإذا كفاك اللّه فإنك لا تضيع ولا يُصيبك من عدوك وحاسدك ضرر . والحسود لا يسود وضرره يعود عليه .

(٧١) هذا العدو الخبيث يغتابني والغيبة خلق ذميم وصفها الله في كتابه العزيز فقال : " **ولا تَـجَسَّسُوا ولا يَغتَب بَعضُكم بعضاً أيُحِبّ أحدُكم أن يأكُلَ لحمَ أخيه ميتاً** " .

فإذا كانت غيبة المرء لأخيه مثل أن يأكل لحمه وهو ميت ، فهذا طعام وخيم ، وداء مظيع يدَّرعه أي يلبسه ويكسو به نفسه .

مطعم وَخْم أي خبيث غير سائغ . داءٌ يدَّرع أي يُلْبَس .

(٧٢) هذا العدو لم يضِرْنِي - ضاره يضيره ضَيْرًا وضاره يضوره ضَوْرًا أي ضرَّه يضرُّه ضررًا - أي لم يضرَّني بشيء غَيْرِ حسده لي . وحسده يضره هو قبل أن يضرَّني [١٥] ، وهو بحديث غيبته لي يصوِّت تصويتًا قبيحًا ، لا يزيد على كونه صوتًا قبيحًا بأي شيء - في قُبْحِهِ مثل صوت البومة بالليل . صياح قبيح بغيض .

زقَتِ البومة تزقو زُقاءً ، ونَعَبَ الغرابُ يَنْعَبُ نعيبًا وزَقًا الضُّوَعُ وهو ذكر البوم . والضُّوع أيضًا طائر صغير ، ولكنه ذو صوتٍ عالٍ غير جميل ، وليس لهذا الطائر من قوة غير صياحه . فعلى هذا يكون المعنى هذا الشخص يغتابني حسدًا لي ، وذلك لا يضرني ، كلامه عني مجرد صياح لا فائدة فيه ، كصياح هذا الطائر .

(٧٣) وهذا الشخص منافق ، إذا لاقيته يُبادرني بالتحية ، وإذا غبت يغتابني - هذا معنى قوله :

وإذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ

أي إذا غبت فإنه يجد نفسه كأنه خالٍ ليس معه أحد ، ولحمي أمامه يأكله ويرتع فيه بغيبته .

(٧٤) بغضه لي عميق في نفسه . كلما أغيب فيفقدني ينبع أذاه وذباب شرّه . مُسْتَسِرّ : أي بغضه في داخل نفسه يُسِرُّهُ لي ، إذا رآني حيًّاني كاذبًا والشَّنْءُ لي كامن في نفسه أي الكراهية لي كامنة مستسرة في نفسه . الشَّنْء والشَّنْآن بسكون النون والشَّنَآن بفتح النون الكراهية والبغضاء .

افتن الشاعر في بيان كراهية هذا الجاسد له وغيبته له . فمرة هي كصياح الطائر الذي لا فائدة وراءه . ومرة هي داء ملبوس ، وطعام وخيم . وذباب نابع من فمه بالأذى . ووحشية ترتع في اللحم .

(٧٥) ساءَ ما ظَنُّوا وقد أبْلَيْتُهُمْ عند غاياتِ الْمَدَى كَيْفَ أقَعْ

أي ساء ظنهم الفاسد حين ظنوا أنهم سيغلبونني . لقد أبليتهم ، أي قد عرفوا بلائي ومقدرتي وقوتي عند غايات مدى النضال والسباق بيني وبينهم . قد عرفوا كيف أصنع وكيف انتصر عليهم وعلى أمثالهم . (ماظنوا) .. .. أي ظنهم . كيف أقع : أي كيف أصنع . كيف وقع نضالي ومسابقتي حين يسابقونني ويناضلونني .

(٧٦) وهو صاحب مِئَرة أي إحْنَة وحقد لا يسأم هذا الحقد ولا يرجع عنه وإذا أخذ في طريق الشرّ أوقد ناره حتى تسطع واستمر يوقدها .
مِئْرة أي حقد وجمعها مِئَر . مثل إحْنَة وجمعها إحَن .

(٧٧) ولكنني أنا لا أبالي بعداوته وعندي القدرة على ردعه . لأني شاعر فصيح مجيد . إذا هاجمت عدواً لي بالشعر صقعته برجم يُصيب مقاتله لا يخطىء ولا يرتد .

حين أرمي ليس رميي طائشًا لا يُصيب ولا مُرْتَجَعًا يسقط قبل الوصول إلى الهدف فأحتاج إلى إعادته .

(٧٨) فارغ السوط ، أي أنا فارغ البال عن أن أكون مشغولاً بأمثال هذا من أعدائي . ولكني على أتم الاستعداد ، إذا ضربت أوجعت ولم أتعب -

لا يتعبني الذي هو مثل الكبير من الإبل ، ولا الذي هو مثل الدقيق النحيف منها .

استعار هنا ركوب الإبل وركوب الخيل للتعبير عن مقدرته على الصراع لأعدائه ، والراكب يحرّك حصانه وبعيره بالسوط . فيقول راحلتي لا تحتاج إلى ضرب فهي سريعة ماضية ، وسوطي فارغ ولكني إذا احتجت إلى استعماله فلن يتعبني بعير أو فرس كبير ولا بعير أو فرس دقيق صغير .

الثِّلِبُ الكبير من الإبل ، ومنها كلمتنا العامية "تِلِبْ" والشخت النحيف الضعيف . والضَّرع الضّعيف .

(٧٩) هذا الشخص وأمثاله من أعدائي ألا يعلمون أنني الآن شيخ مجرب ، قد يدلّ على نضجي وتمام تجربتي شيب رأسي وصَلَعُه ، فكيف ينتظرون مني أن أكون ذا سقطاتٍ وزلاّت يحسبونها عليَّ ويعيبونني بها .

قالوا لما ثار أعداء الحجاج عليه وحاربوه وانتصر عليهم في يوم رستاقاباذ ، خطب وتمثّل في خطبته بهذا البيت من شعر سويد بن أبي كاهل :

كَيْفَ يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَ ما لاحَ في الرَّأسِ بَيَاضٌ وصَلَعْ

أي كيف يرجون أن أتساقط وأضعف وأزلَّ وقد أحكمتني التجارب ونُضْجُ العمر ولاح الشيب والصَّلع في رأسي .

هذا آخر الفصل الثامن من القصيدة ويجيء بعده الفصل التاسع . ويستمر الشاعر في نعت هذا العدو ، ويصف الآن جهده الضائع ، ويُشبِّه نفسه وقومه وعزَّهم بالصخرة الملساء الصماء العالية المرتفعة التي لا تُنال .

(٨٠) وَرِثَ البِغْضَةَ عَنْ آبائِـهِ حَافِظُ الْعَقْلِ لِمَا كان اسْتَمَعْ

(٨١) فَسَعَى مَسْعَاتَهُمْ فِي قَوْمِهِ ثمَّ لم يَظْفَرْ ولاَ عَجْزاً وَدَعْ

(٨٢) زَرَعَ الدَّاءَ ولم يُدْرِكْ بِهِ تِرَةً فَاتَتْ ولا وَهْياً رَقَعْ

جعل الشاعر هذه الأبيات مقدمة لوصفه المجهود الضائع الذي يبذله عدوه في محاولته أن يضره .

قال إنه ورث العداوة والبغضاء عن آبائه . استمع منهم طعنهم فينا وغيبتهم لنا . حفظ عقله ما سمعه منهم . بئس ما سمع وبئس ما حفظ . وقد استمر في سعيه كمثل سعيهم من البقاء على العداوة ، والقول الكاذب الخبيث . ولذلك لم يظفر بشيء ، ولم ينجح ولم يفلح . ومع هذا لم يفتر عن هذا الجهد الضائع فيتركه .

ولا عجزاً ودع ، أي لم يظفر بشيء ولم يترك المجهود العاجز الذي لم يجئه بأيِّ نفع .

ودَعَ يَدَعُ أي ترك يترك . يَدَعُ مستعملة ، ووَدَعَ نادرة جاءت في هذا البيت وفي أشياء قليلة رُوِيَت ويُعتبر هذا الفعل "ودع" مهجوراً [١٦] .

هذا الشخص الخبيث باستمراره في العداوة والغيبة وإيقاد نار الشر لم يصنع صنعًا مفيداً . بل زرع في نفسه مرضًا ، وهذا المرض الذي زرعه لنفسه وفي نفسه لم ينل به نجاحًا في أيِّ أمر ، لم يُدرك به ثأراً فاته فينتقم بذلك من عدوه ، ولا رقع به مكانًا واهيًا من أمور قومه .

تِرَة بكسر التاء وفتح الراء أي ثأر . وَهْيًا : مكانًا واهيًا يحتاج إلى رقعة وإصلاح .

(٨٣) أخذ بعد الأبيات المتقدمة يصف المجهود الضائع الذي يقوم به عدوه :

مُقْعِيًا يَرْدِي صَفَاةً لم تُرَمْ   في ذُرَى أعْيَطَ وَعْرِ الْمُطَّلَعْ

الإقعاء في الناس كهيئة قعود الكلب ، يقعد الإنسان على استه أي على دبره وقدماه منتصبتان . است همزتها همزة وصل وتدلّ على العجز من الإنسان والحيوان ، وعلى الدبر وما حوله ونحن نبيِّن معناها هنا لأنها ستجيء من بعد في البيت ٩٨ .

يردِي بالحجر والـمِرْداة والـمِرْدَي الحجر الذي يُرْمَى به ، وأهل الـجبال قـد يتقاتلون بالحجارة وغيرهم قد يفعل ذلك وقد رمى سيدنا داود عليه السلام جالوت بـحجر فقتله .

صفاة : صخرة . الجمع صفا . والصَّفا من مشاعر الحج إذ السعي بين الصفا والـمروة ركن من أركان الحج والعمرة . "لم تُرَمْ" لم يرمها أحد لعظمها وعلوها ووعورة المسلك إليها . ذُرَى جمع ذِرْوَة وذروةُ الشيء أعلاه أي في أعالي جبل . أعْيَط عالٍ مرتفع . العَيَطُ بفتح العين والياء طول العنق وهو أعيط أي رقبته طويلة وهي عيْطَاء والأعيط الأبيُّ الممتنع . والجبل العالي الذي له قمة عالية أعْيَطُ . وجبل التاكة وهو جبل كسلا أعْيَطُ ، إذ له جزء كأنه رقبة طويلة وهو صخرة عالية ممتنعة . وجبل حراء وهو جَبَلُ الوحي وجَبَلُ النور بمكة أعيط .

يقول هذا الشخص بمجهوده التافه كمثل من يكون مقعيًا في قعوده وبيده حجارة يريد أن يرمِيَ بها صخرةً في رأس جبلٍ رفيع ممتنع وَعْرِ الـمسالك وعر الْمُطَّلع ، أي المكان المشرف العالي منه صعب الـمسالك لا يستطاع الوصول إليه لـمن يريد أن يصعده ويطلع من هناك على الدنيا حوله . الـمُطَّلع أي مكان الاطّلاع ، اسم مكان .

(٨٤) هذه الصخرة وعنى بها نفسه وقومه معقل آمن أي حصن حصين ، من أوى إليه وجد الأمن الكامل . وقد حاول زحزحتها الأعادي من قبله فلم يقدروا على ذلك . لم يستطيعوا أن يقتلعوها من مكانها .

(٨٥) هذه الصخرة وعنى بها قومه وديارهم كما عنى نفسه وصلابة موقفه ورفعة قدره وشرفه - هذه الصخرة غلبت الأمم مثل عاد ومن جاءوا بعدهم وقد أبت أن تخضع ولذلك لا يمكن إذلالها - ليست تُتَّضع أي ليست توضع في مرتبة وضيعة .

وههنا جاء الشاعر بمبالغة وغلو لأنه قد كان من بني يشكر وبنو يشكر من بني بكر وبنو بكر من القبيلة الكبرى الضخمة ربيعة وربيعة كلهم من بني عدنان وعاد من العرب البائدة وكان زمان عادٍ قبل زمان سيدنا إسماعيل الذي تُنسب إليه قبائل عدنان كلها وقبل زمان سيدنا إبراهيم الخليل .

وإنما أراد سويد أن يقول مجدنا قديم وقد غلبنا الأمم القديمة .

(٨٦) صخرتنا عالية لا يراها الناس إلاّ وهي فوقهم مشرفة عليهم .

ثمَّ حوَّل الشاعر صخرته من طبيعة الحجر الجامد الراكد في مكانه إلى صفة السيد المتصرف . أي نحن سادة نأتي ما نشاء ونترك - ندع - ما نشاء ولا يرانا الناس أمثال هذا العدو إلاّ ونحن فوقهم متصرفون كما نشاء .

(٨٧) هذه الصخرة المنيفة ذات الحيوية والتصرف والمجد مشرفة يراها هذا الجاهل الحاسد فوقه ومع هذا يستمر في رميها بحجارته ولن يبلغ من غرضه شيئًا ، شأنه في هذا شأن الغبي الذي يصنع الخطأ ويظن أنه صواب ويصنع الصنع الردىء ويظن أنه جيّد .

الرعة بكسر الراء الشأن والهيئة ونصبها ههنا لأنها في معنى المفعول المطلق . يصنع هذا العدو هكذا صنيع الجاهل الذي يعجبه ما يصنعه وإن كان قبيحًا .

(٨٨) أي استمر يرمي الصخرة العالية بحجارته التي لا تصنع بها شيئًا حتى تعب من الرمي وحتى كَمِهَتْ عيناه أي عميتا ، والأكْمَهُ هو الذي يولد أعمى والكَمَهُ العمى الذي يولد به الأكمَهُ . أو العمى عامة . وهذا الرجل اشتد عمى عينيه وأظلمتا فكأنه وُلِد أكْمَهَ ولم ير النور قط وذلك من شدة شعوره بالغيظ والإخفاق . ولما عميت عيناه اضطره ذلك أن يكفَّ عن الرمي . فكفَّ كارهًا وهو يلوم نفسه. لَحَى يَلْحَى لام يلوم . لَحَاهُ اللّه أي لعنه اللّه. كفَّ هذا الرجل كارهًا وجعل يلوم نفسه حين اضطره عماه إلى أن يكفَّ عن الرمي .

(٨٩) وذلك حين رأى أنه لم يضر الصخرة . وقد بينا أن الفعل ضار يضير ضيراً بمعنى ضرَّ يضرُّ ضراً وضرراً ومثله ضار يضور وهو غير كثير الاستعمال . يضير أكثر في الاستعمال وقرىء به القرآن ، في سورة آل عمران الآية ١٢٠ (وإنْ تَصْبِرُوا وتتقوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) وفي قراءة أبي عمرو "لا يضِرْكُم" لام نفسه وكف حين رأى أن جهده لم يضر الصخرة ورأى أنَّها خَلْقَاءُ أي ملساء لا مطمع في زحزحتها أو كسرها أو إيقاع أيٍّ ضررٍ بها .

رأى الأولى والثانية بمعنى أدرك وعلم وأيقن أو رأى الأولى قلبية والثانية بصرية قبل أن يفقد بصره يأسًا وغيظًا .

أو قوله كَمِهَتْ عيناه مبالغة أي أظلمت الدنيا في عينيه بسبب إخفاقه فكأنه وُلِدَ أعمى . جهد جيمها مفتوحة أو مضمومة كلاهما صحيح وجاءتا في كتاب اللّه تعالى . والجُهْد هو الطاقة . أخلق وخلقاء أي أملس وملساء ملاسة .

(٩٠) هذه الصخرة الخلقاء صُلْبَةٌ تَكْسِر قرن من يَنْطَحُها وإذا رُميت بمِرْدَى - المردى الحجر الذي يُرْمَى به وقد مرَّ شرحُها في شرح البيت (٨٣) - وإذا رُميت هذه الصخرة بحجر انشق ذلك الحجر وتهشم . انجزع أي انكسر وانقطع .

(٩١) هذه الصخرة إذا رام هذا الشخص ، إذا طلب هذا الشخص زحزحتها عن موضعها أو اقتلاعها أو كسرها أعياه ذلك ولم يستطعه ، وقصَّر به أن يبلغ مراده من زحزحتها وقَلْعِها ضعفُه وذلته - ليست لديه العُدَّةُ التي يكسرها أو يقتلعها بها وهو هزيل ضعيف . الْجَدَع سوء الغذاء . جعل هذا مثلاً لضعفه . ومن قبل قد قال في البيت (٦٢) :

وإبـاءٌ لِـلـدَّنِيَّـات إذا أُعْطِيَ الْمَكْثُورُ ضَيْمًا فكَنَعْ

المكثور القليل النصير كقوله هنا : أعيا به " قِلَّةُ العُدَّةِ قِدْمًا والجَدَعْ " - أي قلة الاستعداد القديمة في قومه وفي أصله ، وسوء الغذاء والضعف القديم في قومه وأهْله ونفسه .

جعله كأنه لا عدة له ولاغذاء يتقوى به لديه مبالغةً في تصوير فشله وعجزه. وهذا آخر الفصل التاسع وجعله تمهيداً للفصل العاشر الذي يصف فيه مباراة هذا العدو له ، والصراع البياني والخصومة التي كانت بينهما. ولقد كان من عادة العرب المنافرة وذلك أن يختصم الرجلان إلى حَكَمٍ معروف ، فيتكلم هذا ثم هذا ويسمع الحكم كلامهما ثم يصدر حكمه ، فمن حكم له كان هو المنتصر . وكانت المنافرة شعراً أو خطبة أو هما معًا -.والوصف الذي ساقه سويد ههنا يدل على أنها كانت شعراً لأنه يذكر فيها فرار شيطان عدوه وانهزامه ، وكانت العرب تزعم أن الشاعر له شيطان يعينه .

(٩٢) هذا البيت الثاني والتسعون :

وعدوٍّ جاهدٍ نَاضَلْتُهُ في تَرَاخِي الدَّهْرِ عنكم والْجُمَعْ

وهذه هي بداية الفصل العاشر . وهو هنا يخاطب قومه وينبههم إلى أن هذا الحاسد الذي يكيد له هو ، بلا شك هو أيضًا حاسد لهم وعدو لهم جاهد أي باذل طاقة عظيمة في العداوة .

يقول لهم عندما أخذ الزمان في التراخي عنكم يا قوم ، وقلت الْجُمَعُ أيْ الجماعات التي تنتصرون بها وتنصركم جاء هذا العدو الجاهد في عداوته ليوقع بكم الأذى والضرر فانبريت أنا له وناضلته فاعرفوا هذا من أفعالي .

قوله في تراخي الدهر يدلّ على أنهم ضعفوا لتراخي الدهر عنهم وعدم إعانته لهم ولتراخي جماعات الناس عن نصرهم - أخرجهم من هذا الضعف إلى ما كتبه اللّه لهم من النعم والكثرة وإباء الدنيَّات ما بذله هو في الدفاع عنهم ورد خصومهم .

(٩٣) فَتَسَاقَيْنَا بِمُرٍّ نَاقِعٍ في مَقامٍ لَيْسَ يَثْنِيهِ الْوَرَعْ

وصف الخصومة بينه وبين العدو ، فذكر أنهما تخاصما بوضوح وبكلام مرّ في مقام مشهود لم تثنهما فيه هيبة أو تراجع عن أن يتبادلا من الكلام ما هو كالسمِّ الناقع من شدة مرارته .

(٩٤) وشبَّه ترامِيهما بمرِّ الكلام بالمناضلة وهيَ المراماة بالسهام وإنَّما هي سهام البيان والشعر والخصومة .

قال رماني هذا الخصم ورميته بنبال من القول ، ترامينا بسهام ذات سم قد نقع أي ذات سمٍّ شديد من شدَّة مرارتها .

ترامينا وأعدائي حضور يرون قوتي ومراماتي لخصمي الذي كان يدافع عنهم كما أنا كنت أدافع عن قومي .

(٩٥) ترامينا بنبال مذروبة أي حادة من نوع لم يقدر على صنعته إلاّ صانع ماهر. لم يطق : لم يستطع . صَنَعٌ : صانع ماهر ، تقول رجل صَنَعٌ وصَنَاعٌ وكذلك امرأة صَنَاعٌ وصَنَعٌ أي حاذقة ماهرة في صناعتها .

(٩٦) هذه النبال خرجت بسبب عداوةٍ بيِّنةٍ كانت بيننا منذ أيام الشباب ، إذ دهرنا جَذَع والجذع هو الشاب من الخيل ، وكانت قديمة بين قومنا في الزمان الأول .

(٩٧) تحارضنا : تقاتلنا قتالاً مريراً يصير به أحدنا حرضًا أي هالكًا .

وقال بعض الشراح : تحارضنا أي حرَّض بعضُنا بعضًا وهذا الشرح غير جيّد لأن معناه يناقض آخر البيت .

يقول تقاتلنا قتالاً مريراً حتى الموت وقال المشاهدون والحكام إنَّ الذي يطلب المعونة هو المنهزم والقوم الحاضرون لن يعينوا إلاَّ من حكموا بأنه ضَرَعٌ أي ضعيف ، إذْ قارب صاحبه أن يقتله قالوا له هذا يكفي ، هو المنهزم وأنت المنتصر .

(٩٨) لما اشتدَّ قتالُنا ورأى أني سأهلكه ولّى هاربًا لا يحمي استه[١٧] ، لا يحمي دبره ، أي أعطاني ظهره هاربًا فلو شئت أصبته في ظهره ولكنه أعلن الهزيمة ، ووقع عنه طائر الإتراف أي البغي والعدوان والغرور وانكشف ضعفه وذلُّه .

(٩٩) خرَّ من الهزيمة على وجهه مكسور الأنف لا يستطيع أن يشْمَخَ بأنفه كما كان يفعل ، مكسور النفس خاشِعَ العين مذلة لا يستطيع أن يرفع طرفه وصار بمنزلة الأصمّ الذي لا يسمع .

(١٠٠) فرَّ مني ، وهرب شيطان غروره ، شيطان كبريائه شيطان فصاحته وشعره ، فرّ إلى حيث لا يجد فائدة ولا يستطيع أن يُعْطِيَ شيئًا أو يمنع مني ما أريد أخذه - هنا آخر الفصل العاشر ويليه الحادي عشر من البيت (١٠١) إلى (١٠٧) .

(١٠١) هنا يبدأ الفصل الحادي عشر ، فرَّ مني والفرار الآن لا ينفعه ، لأن عبء الهزيمة ثقيل على ظهره التي يحملها وهو فارٌّ ، وسيضع نفسه في مكان مذلة حقير - متَّضَعُه أي الموضع الذي سيضع فيه نفسه ، سيُتَّضَعُ فيه ، مَوْضِعَ مذلّة ، مُتَّضَعَ مَذَلَّةٍ .

متَّضع اسم مكان من اتضع أي صار وضيعًا أو وضع نفسه في موضع ما وهنا هو موضع ذلّ . أوقر يوقر إيقاراً : تقول أوقرت الدابة أيْ وضعت عليها الأوقار أي الأحمال ، واحدها وِقر بكسر الواو وهو مُوقَرُ الظهر أي على ظهره أحمال ثقيلة من الهموم أو الهزيمة في هذا البيت .

(١٠٢) هذا العدو رأى مني مقامًا صادقًا ثابتًا صابرًا على الشِّدَّة شجاعًا إذا أوجعني برميه لم أُظْهِرْ جزعًا يدلّ على أنّي متألم بل أكتم ذلك صبراً وهو لَمْ يستطع أن يصبر فغلبته .

(١٠٣) ورأى مني لسانًا فصيحًا حسن التصرف قاطعًا مثل السيف .

هذا البيت بديع في إيجازه وقوّة تعبيره وقد تمثّل به الدكتور طه حسين في رثائه لسعد زغلول باشا الزعيم المصري الكبير .

(١٠٤) يذكر سويد انثيال البيان عليه . فرَّ شيطان خصمه منهزمًا ولكن شيطانه هو جاءه بمدد جديد عندما نَفِدَتْ مادة خصمه وصار كراكب الصحراء الذي ذهب جميع الماء الذي في قِرَبِه .

قال جاءني صاحبٌ ذو إجابة وإغاثة ، ذو غيثٍ أي ذو إجابة ، وهو زفَيَانٌ أي خفيف سريع في إجابته ، وجاءني "عند إنْفَادِ الْقُرَعْ" عندما أنفد خصمي قُرَعه ، والقرع جمع قُرْعَة وهي قربة الماء ، أنفدها أي جعلها تنفد - نفد الشيء بفتح النون وكسر الفاء بعدها دال مهملة أي انتهى وفَنِيَ والمضارع ينفد بفتح الفاء بعدها دال مهملة . نَفِدَ الشيء نفاداً وأنْفَده الاستهلاك إنفاداً .

(١٠٥) أتاني هذا الصاحب المساعف مندفعًا ناصرًا لي من تلقاء نفسه مع العلم بأنني لم أناده ولم أُنْفِدْ قرعي كما قد أنفد خصمي قرعه . جاءني صاحبي هذا وهو شيطان شعري وقال لي لبَّيْكَ أيْ إجابةٌ لك بعد إجابة . وصاحبي هذا جرىء لا يُبالي ، يحتقر الناس الذين حولي من الخصوم ومن والاهم ويقول القَذَع ماهراً فيه - القَذَعَ القول المرُّ اللاذع الموجع .

(١٠٦) صاحبي هذا ، عندما أنفد خصمي قُرَعه وصار مَعِينُ بيانه يابسًا ، صاحبي هذا جاءني ببحر زاخر من القول . صاحبي هذا ذو عُبابٍ أي كبحر ذي موج . خَمِطٍ آذيُّه ، أي تياره هادر جارف .

خَمِطَ الفَحْلُ فهو خَمِطٌ أي هَدَر فهو هَدَّار وغَضِبَ وهاج وفحل خَمِطٌ أي هائج . وآذيٌّ خَمِط أي تيَّار هائج .

الآذيُّ : التيار . يرمي بالقَلَع أي يرمي السفينة ذات الشراع . القلع الشراع جمعه قُلُوع . والبحر الهائج يكُبُّ السفينة العظيمة فتغرق فيه .

(١٠٧) زَغْرَبِيٌّ أي كثير الماء زاخر . مستَعِزٌّ بحره أي بحره عظيم لا يستطاع عبوره فهو ذو عزة ونفور . لعظمه والتطام أمواجه . وليس للماهر فيه مطَّلع أي إشراف - مصدر ميمي من اطَّلَعَ أي أشرف . أي لا يستطيع الماهر أن يرقي فوق أمواجه ويُشْرِف من فوقها مهما يكن سبَّاحًا أو ملاَّحًا ماهرًا . هنا بلغ الشاعر ذروة فخره .

بحره هو زاخر - وأعانه شيطانه ببحرٍ من البيان عظيم فانتصر الانتصار الباهر .

(١٠٨) وأخيراً يجيء الفصل الأخير وهو بيت واحد ، جعله الشاعر مقطعًا لقصيدته أي ختامًا لها :

هَلْ سُوَيْدٌ غَيْرُ لَيْثٍ خَادِرٍ ثَئِدَتْ أرْضٌ عليهِ فَانْتَجَعْ

هل أنا إلاَّ مثل الأسد الهِزَبْرِ الباسل الذي حين يجد الأرض قد نديت وفسد المكان الذي يقيم فيه ، يتركه وينتجع غيره ؟

تعليق:

١- أول القصيدة :

بَسَطَتْ رَابِعَةُ الْحَبْلَ لَنا فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ منها ما اتَّسَعْ

يشتمل على معنى من الملامة . لمَّا بسطت الحبل وصلناه واستمررنا نواصله ما دام الوصل مستمراً وما دامت العلاقة واسعة المجال .

هل حدث في الأمر تغيير يدعو لمراجعة النظر - كما ذكرنا ، النسيب الذي يبدأ به الشاعر يتضمن روح المعاني والأغراض التي يريد أن يتناولها . لذلك قال الناقد ابن رشيق إنَّ الشاعر إذا انفتح له نسيب القصيدة "فقد وَلَج من الباب ووضع رجله في الركاب" .

٢- بعد أن افتخر الشاعر بقبيلته الكبرى بني بكر وقال عن ديارهم :

(٣٠) مِنْ بَنِي بَكْرٍ بِها مَمْلَكَةٌ مَنْظَرٌ فِيهِمْ وفيهِمْ مُسْتَمَعْ

وبعد أن فخر بقومه الأقربين من بني يشكر وقال :

(٦١) كَتَبَ الرَّحْمنُ ، والحَمْدُ لَهُ ، سَعَةَ الأخْلاقِ فينا والضَّلَعْ

(٦٢) وإبــاءً لِـلـدَّنِـيَّــات إذَا أُعْطِيَ الْـمَكْثُـورُ ضَيْمًا فكَنَعْ

بعد هذا الفخر نجده يقول :

وعــدوٍّ جـاهِـدٍ نَـاضَـلْـتُـهُ في تَرَاخِي الدَّهْرِ عنكم والْجُمَعْ

وتراخي الدهر والجُمَع معناه أن أحوالهم ساءت وهذا عكس الفخر الذي تقدم هنا عتاب لقومه أن يعرفوا له حق دفاعه عنهم وحمايته لهم حين كانوا في أشد الحاجة إلى ذلك .

٣- يقول في البيت (٦٦) :

كَيْـفَ باسْتِقْرَارِ حُـرٍّ شَاحِطٍ بِـبِـلَادٍ لـيسَ فـيـهـا مُـتَّـسَعْ

هو الحر الشاحط . فما هذه البلاد التي ليس فيها متسع ؟ .

هنا الشاعر يعاتب قومه ويريد أن يقول إن بلاد قومه قد ضاقت عليه لأنهم لم يعرفوا فضله ولم يقدّروه حقّ تقديرِه ويذكروا له دفاعه القوي عنهم . إذن فليهاجر :

هَلْ سُوَيْدٌ غَيْـرُ لَيْثٍ خَـادِرٍ ثَـئِـدَتْ أرْضٌ عليهِ فَانْتَجَعْ

الليث الخادر هو الكاسر المرهوب الذي يربض في عرينه وهو خِدْره أي أجَمتُه والأجمة هي الغابة . ويقال للأسد أيضًا مُخْدِر ومُخْدَر بكسر الدال وبفتحها أَخْدَرَ الأَسَدُ أي لزِمَ أجمتَهُ وهي خِدْرُه . وأخْدَر العرينُ الأسدَ أي ستره فهو مُخْدَر .

تعليق ثان :

وصف سويد نفسه بأنه هو الذي دافع عن قومه وأنه ناضل عنهم والمناضلة هي المراماة بالسهام - ووصف خصمه بأنه يروم زحزحة صخرة ملساء عالية يرميها ، وظل يفعل ذلك حتى تعب وكمهت عيناه .

مع أن الصخرة الموصوفة جعلها الشاعر رمزًا لشرف قومه وعزتهم ورفعتهم ، هي أيضًا رمز له هو - إنه هو الصخرة الرفيعة الخلقاء .

الصورة التي صوَّر بها الصخرة رائعة ، ومما يزيدها روعة أنَّه أعطى الصخرة حيوية . فهي ليست حجرًا جامدًا ، ولكنها حجر ذو حيوية وتصرّف كما قدمنا ذِكْرَ ذلك في الشرح

وقد تأثر سويد في نعته للصخرة بشعراء كبار سبقوه . من أهمهم وأقدمهم شاعر بني يشكر الحارث بن حِلّزَة [١٨] اليشكري صاحب المعلّقة التي أولها :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

وهي المعلقة السابعة في ترتيب المعلقات .

ووصف فيها عزّ قومه وذكر خصومهم وتحداهم فقال :

فَبَقِينَا عَلى الشَّنَاءَةِ تَنْمِيـ ـنا حُصُونٌ وعِزَّةٌ قَعْساءُ

أي بقينا على عداوتنا لخصومنا ترفعنا حصوننا وعزّتنا العالية الرفيعة التي تغيظهم .

قَبْلَ مَا اليَوْمِ بَيَّضَتْ بعُيُونِ النَّـ ـاسِ فيها تَغَيُّظٌ وإبَاءُ [١٩]

أي من الدهر القديم غاظت أعداءها .

صوَّرها هنا بصورة الصخرة العالية . قعساء معناها عالية وثابتة وهذه صفة الجبل وصفة صخوره . ثم وصف أعداء قومه من الناس أنهم يرومون رمي هذه العزَّة القعساء وهي ثابتة كصخرة الجبل فلا يستطيعون ، وقد بيّضت بعيون النّاس أي أعمتهم برفعتها وعجزهم عنها - وهذا نفس المعنى الذي جاء في قول سويد :

كَمِهَتْ عَيْنَاهُ حتَّى ابْيَضَّتَا

وقوله فيها تغيُّظٌ أي ارتفاع رأس وعُنُق وإباء أي امتناع . ومن هنا أخذ سويد قوله :

(٨٣) مُقْعِيًا يَرْدِي صَفَاةً لم تُرَمْ في ذُرَى أعْيَطَ وَعْرِ الْمُطَّلَعْ

وقد جاء بكلمة الإباء في قوله :

(٦٢) وإباءً لِلدَّنِيَّات إذَا أُعْطِيَ الْمَكْثُورُ ضَيْمًا فَكَنَعْ

ثمَّ يقول الحارث (كلمة الحارث وهي عَلَم تكتب بوجهين بالألف بعد الحاء وبدونها والوجه الثاني أكثر عند القدماء) - يقول :

وكأنَّ المَنُونَ تَرْدي بنَا أرْ عَنَ جَوْنًا يَنْجابُ عَنْهُ العَماءُ (٢٠)

مُكْفَهِراً عَلَى الحَوَادِثِ ما تأْ تُوه للدّهْرِ مُؤْيِدٌ صَمَّاءُ

يقول الحارث كأن الدهر (المنون) يرمي بحجارته جبلاً أسود اللون عظيماً (أرعن) يتفرق السحاب من حوله مكفهراً ، شديد السواد ، عند الحوادث ، يراه الأعداء مكفهراً من الغضب والقوة لا تؤثر فيه من حوادث الدهر الداهية المُؤْيِد الشديدة الصَّماء .

شبَّه الحارث بن حلزة قومه بالجبل العظيم ذي الصخور العظام الشامخ على الدهر الذي لا يزحزحه من يرميه وقد يئس الأعداء من التغلب عليه فابيضت عيونهم من الإعياء والإخفاق .

نفس الصورة فصلها سويد ووضحها . صورة الحارث فخمة هائلة .

وصورة سويد كما قدمنا ذات حركةٍ وتحدٍّ شديد ..

وقد نظر سويد أيضًا إلى صخرة الأعشى في معنى قريب من معناه حيث قال :

كناطحٍ صخرةً يومًا ليُوهِنَها فلم يَضِرْها وأوهى قَرْنَهُ الْوَعِلُ

أي كثورٍ ينطح صخرة ليكسرها ويضعفها فلم يضرها ولكنه ضرَّ قرنه - قال سويد :

(٩٠) تَعْضِبُ القَرْنَ إذَا نَاطَحَهَا وإذَا صابَ بها الْمِرْدَى انْجَزَعْ

تعليق ثالث عن بعض محاسن هذه القصيدة :

١- أولاً أبيات الحبّ ، أنه يُعطي القلوب شجاعة وهي العاشر والحادي عشر ، والبيت الحادي عشر من روائع الشعر العربي ومن أبيات الحكمة :

وكذَاكَ الحُبُّ ما أشْجَعَهُ يَرْكَبُ الْهَوْلَ وَيَعْصِي مَنْ وَزَعْ

٢- ثانياً وصف السهر :

(١٢) فأبِيتُ اللَّيلَ ما أرْقُدُهُ وبِعَيْنَيَّ إذَا نَجْمٌ طَلَعْ

(١٣) وإذَا ما قُلْتُ لَيْلٌ قد مَضَى عَطَفَ الأوّلُ مِنهُ فَرَجَعْ

٣- ثالثًا أبيات الحديث الجذاب من محبوبته وتشبيهه له بالرُّقَى التي يُدَاوَى بها الملدوغ والملسوع ، لِمَا تُحْدِثُه في نفس العاشق المشتاق من الشفاء ، وما تضمَّنته من أخبار العرب وخرافاتها حيث زعموا أن الوعول تطرب للغناء ويصيدها الصيادون به فشبَّه نفسه بالثور الوحشيّ الذي اصطاده صوت محبوبته الرخيم :

(١٨) ودَعَتْني بِرُقَاهَا إنَّها تُنْزِلُ الأعْصَمَ مِن رَأسِ الْيَفَعْ

(١٩) تُسْمِعُ الحُدَّاثَ قَوْلاً حَسَنًا لو أرادُوا غَيْرَهُ لم يُسْتَمَعْ

٤- رابعًا : الأبيات التي مدح بها قومه بني بكر في جملتها فخر جيّد ومن أجوده قوله :

(٣٠) مِنْ بَنِي بَكْرٍ بِها مَمْلَكَةٌ مَنْظَرٌ فِيهِمْ وفِيهِمْ مُسْتَمَعْ

(٣١) بُسُطُ الأيْدِي إذَا ما سُئِلُوا نُفُعُ النَّائِلِ إنْ شَيءٌ نَفَعْ

(٣٢) مِنْ أُناسٍ لَيْسَ مِنْ أخْلاقِهِمْ عَاجِلُ الفُحْشِ ولا سُوءُ الْجَزَعْ

قوله من أناس فيه معنى يا لهم من أناس ، ما أعظمهم من أناس .

٥- خامسًا : وصفه للعدو وتصويره لحسده وغيظه وأحقاده ونفاقه تصويرًا دقيقًا حيًا معبّرًا :

(٦٧) رُبَّ مَن أنْضَجْتُ غَيْظًا قَلْبَهُ قدْ تَمَنَّى لِيَ شَرًا لـم يُطَعْ

(٦٨) ويَرَانِي كالشَّجَا في حَلْقِهِ عَسِراً مَخْرَجُهُ ما يُنْتَزَعْ

(٦٩) مُزْبِدٌ يَخْطِرُ ما لم يَرَنِي فإذَا أسْمَعْتُهُ صَوْتِي انْقَمَعْ

٦- سادسًا : قوله وهو من أبيات الحكمة المأثورة :

(٧٩) كَيْفَ يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَ ما لاحَ في الرَّأسِ بَيَاضٌ وصَلَعْ

٧- وسابعًا آخر القصيدة كلُّه شديد الحيوية قويّ العبارات بارع وذلك من البيت الثاني والتسعين إلى آخر القصيدة .

حواشٍ وتوضيح :

(١) كتب المستشرق الإنجليزي Charles James Lyall اسمه بالعربية هكذا : كارلوس يعقوب ليال . أما كارلوس فهي الصيغة الأسبانية لاسمه ، ويعقوب صيغة أخرى لجيمز الإنجليزية . الفرنسيون يقولون لجيمز "جاك" وهي مختصرة من جاكوب أي يعقوب .

(٢) هرون تكتب بألف بعد الهاء وبدونها هكذا (هارون - هرون) وكان الشيخ محمد هارون والد الشيخ الدكتور عبدالسلام محمد هرون ثاني من تولى منصب قاضي القضاة بالسودان أيام الحكم الثنائي وكان الشيخ محمد شاكر والد الأستاذ محمود محمد شاكر وأخيه الشيخ أحمد أول من تولى هذا المنصب .

(٣) ذهب الجدّة : يجوز هنا تذكير الفعل وتأنيثه لأن الجدّة ليست مؤنثًا حقيقياً . تقول ذهبت الجدّة وذهب الجدّة ، ولكن ذهبت لا تصلح هنا لأنها تخل بوزن البيت . ويجوز تذكيرَ الفعل مع الجمع وإن كان يدلّ على مؤنث حقيقي . قال تعالى :

(وقالَ نِسوةٌ في المدينةِ امرأتُ العزيزِ تُراوِدُ فَتَـاها عن نَفسه قد شغَفَهَا حُبّاً إنّا لَنَرَاها في ضلالٍ مُبِين) "سورة يوسف : ٣٠" .

(٤) "منظر فيهم وفيهم مستمع" - منظر مبتدأ مع أنه نكرة لأنه كأنه موصوف ، أي منظر جميل فيهم وانظر رقم (٨) فيما بعد من الحواشي .

(٥) أي تبدو أقرابها أي جوانبها باليات أي مثل الأشياء البالية ، مثل قطع الثياب البالية وكأنها قطع متفرقة رقيقة من السحاب .

باليات منصوبة بالكسرة نيابة عن الفتحة حال إذ المعنى وربَّ فلاةٍ واضحةٍ أقرابها أي نواحيها حال كونهن بالياتٍ أي مثل الباليات ولك أن تجعلها مرفوعة أي هن بالياتٌ أي نواحيها باليات أي أقرابها باليات مثل القطع المتفرقة من السحاب . جَمَعَ (باليات) لأنه يريد نواحي الفلاة ، أقراب الفلاة .

ثمَّ الفلاة نفسها لاتساع نواحيها كأنها جمع فيجوز ردُّ الحال إليها لأنها جمع في المعنى . والذي ذكرناه أول الأمر واضح وقريب إن شاء اللّه تعالى .

(٦) أيضًا يجوز لك أن تشرح البيت (٧) فتقول : فتراها مسرعة عاصفة في جريها منعلة بنعال الحداد التي تقيها من الصخور . الوقع بفتحتين أي الصخور جمع وقَعَة بفتح القاف والعين أي صخرة .

(٧) نهل بوزن فرح ينهل نهلاً أي شرب أول الشرب وعَلَّ يعُلُّ ويعِلُّ بكسر العين وبضمِّها علاً وعَلَلاً أي شرب الشربة الثانية أو شربة بعد شربة تباعًا .

(٨) قوله "منظرٌ فيهم" يُشْعِرُ بعنصر مفاجأة . هذه المفاجأة تدلّ على أنَّ الشاعر أراد أن ينبِّهنا على هذا المنظر . لذلك قوله "منظرٌ فيهم" معناه "منظر موصوف ، منظر عجيب منظر صفته وصفته موجودٌ فيهم" . لذلك جاز ههنا أن تكون النكرة مبتدأ بها .

(٩) صَبُور جمعها صُبُر ونجيب جمعها نُجُب ونفوع جمعها نُفُع وقضيب جمعها قُضُب - هذه أمثلة ومرَّت بُسُط بضمتين جمع بسيط .

(١٠) عيّ هي عَيِيَ بوزن رَضِيَ وأدغمنا الياء في أختها فصارت عَيَّ وفي القرآن في قراءة مشهورة :

(إذ أنتم بالعُدوة الدّنيا وهُم بالعُدوة القُصوى والرّكبُ أسفلَ منكُم ولو تواعَدتم لاختلفتُم في الميعاد ولكن ليقضيَ اللّهُ أمراً كانَ مفعولا ليهلِكَ مَن هلَكَ عن بيّنة ويَحيَى من حَيَّ عن بيِّنة وإنَّ اللّهَ لسميعٌ عليم) صدق الله العظيم "سورة الأنفال : ٤٢" .

حيّ أي حَيِيَ وقرأ بعضهم بها . والعُدوة بضم العين وبكسرها كلاهما قُرِىء به .

(١١) كفء وكفو أي نظير وبهما قرأ القراء . "ولم يكن له كفوًا أحد" . (الإخلاص : ٤) .
قرأ بعض القراء بضمتين وواو بدون همزة وهي قراءة حفص عن عاصم وقرأ آخرون بضمتين وهمزة وبعضهم بسكون الفاء ووجوه القراءة كثيرة في هذا الحرف ولكن الذي نقرأ به ما تقدم ذكره : كفؤًا - كفوًا أحد .

(١٢) إذا جاء بيت الشعر بقافية في صدره وقافية في عجزه سمي مصرعًا وسمي هذا تصريعًا نحو :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وإنْ زِدتَّنا كَرْبا   فإنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ للشَّمْسِ والغَرْبا

والمتأخرون من علماء العروض استحدثوا اصطلاحًا سمّوه التقفية وفرّقوا بينه وبين التصريع وهذا تفصيل قصدوا به التفرقة بين الأشعار التي يكون فيها الصدر والعجز دائما من وزن واحد مثل :

قِفَا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ

والتي يختلف وزن صدرها عن عجزها إلاّ في بيت التصريع مثل "فديناك من ربعٍ وإن زدتنا كربا" - قال الشاعر في نفس القصيدة :

ومَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا طَوِيلاً تَنَكَّرَتْ   عَلى عَيْنِهِ حتَّى يَرَى صِدْقَها كِذْبا

عجز البيت هنا أطول من صدره . آخر الصدر وزنه (مفاعلن) وآخر العجز وزنه (مفاعيلن) هذه التفرقة الاصطلاحية ليست بذات أهمية بالغة فاعلم أصلحك الله .

(١٣) ذكر الأنباري في البيت (٤٦) :

حَلَّ أهْلِي حَيْثُ لا أطْلُبُها   جَانِبَ الْحِصْنِ وَحَلَّتْ بِالْفَرَعْ

أنَّ أبا عكرمة الضَّبي رواه هكذا ثم قال والرواية جانب الحضر وهي مدينة الموصل . وقال في البيت (٤٥) إن الرواية يدع بكسر الدال . فهذا لا يدل دلالة قاطعة على أنها رواية أبي عكرمة .

لذلك قلنا بقولنا لعله لا بأس أنْ تفتح الدال ولعل بعضهم كان يرويها هكذا والله تعالى أعلم .

(١٤) مندفعًا : حال من الضمير اسم كأن .

(١٥) الضُّر بضم الضاد اسم للضَّرر والضَّر بفتح الضاد مصدر ضرَّ يضرُّ ضَرّاً .

(١٦) قال سيبويه في أول كتابه : "يقولون يدع ولا يقولون ودع استغنوا عنها بترك" . وقال صاحب النهاية "ودع الشيء يدعه وَدْعًا إذا تركه" فالمسألة فيها خلاف ، والصواب أن يقال "يدع" كثيرة في الاستعمال وودع قليلة وجاءت في البيت (٨١) من هذه القصيدة .

(١٧) الأسماء التي تبدأ بهمزة الوصل عشرة معدودة وهي : ابن وابنة وابنم (بمعنى ابن) واثنان واثنتان وامرأة واسم واست وايمن الله وايم الله .

(١٨) الحرث والحارث وجهان في الكتابة كما مرّ في الحاشية رقم (٢) عن هارون وهرون ومثل ذلك إبرهيم وإبراهيم وإسمعيل وإسماعيل تكتب بالألف وبدونه وكذلك إسحق وإسحاق .

(١٩) قبل ما اليوم : أي قبل اليوم . بيضت بعيون الناس أي بيضتها وجعلتها عمياً كقولك ذهب به أي صيَّره ذاهبًا أو أذهبه ، جعله يذهب . تعيُّط : ارتفاع ، وقد مرَّ شرح البيت مختصراً .

(٢٠) تردِي : تَرْمِي . ينجاب : ينكشف . العَمَاء : السحاب .

هذا ومن الله التوفيق وله الحمد أولاً وأخيراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

"انتهت الحاشية" .

كلمة أخيرة :

قصيدة سويد هذه على طولها كلٌّ واحد متماسك ، موضوعها الرئيسي شُعورُ سويدٍ بأن قومه لم يقدِّروه حقّ قدره ويعرفوا له حقَّ دفاعه عنهم ومع هذا الموضوع الرئيسي موضوع خصومته مع أعداء لهم من بينهم هذا العدو المنافق الحاسد الذي صوَّره لنا في الأبيات : ٦٧، ٦٨، ٦٩ .

وفي القصيدة بَعْدُ معانٍ جيِّدة في النسيب والفخر والوصف وأبيات شوارد في الحكمة - كما قال الأستاذان الدكتور عبدالسلام محمد هارون والشيخ أحمد محمد شاكر - هذه القصيدة من أغلى الشعر وأنفسه . هي بلا شك من جياد القصائد الطوال القديمات . وقد أحسن المفضل الضبي والذين رووا عنه من العلماء والذين روى هو عنهم في اختيارها وحفظها لنا جزاهم الله خيراً .

والحمدُ لله بدءاً وختاماً وصلّى اللهُ على سيّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

المؤلف

عبدالله الطيب

فرغت من الشرح مساء الثلاثاء ٢٩ من ربيع الأول ١٤١٢هـ

الموافق ٨ من أكتوبر ١٩٩١م